أحمد صبحي منصور

القرآن وكفى

مصدراً للتشريع الإسلامي



د. أحمد صبحي منصور

القرآن وكفى
مصدراً للتشريع الإسلامي



Arab Diffusion Company

القرآن وكفى

مصدراً للتشريع الإسلامي

د. أحمد صبحي منصور



ص.ب. 113/5752

E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: ٦٥٩١٤٨-٩٦١١ فاكس: ٦٥٩١٥٠-٩٦١١

الطبعة الأولى ٢٠٠٥

موضوعات الكتاب

الفصل الثاني:
القرآن والنبي والرسول

الفصل الثالث:
قراءة في» البخاري»
أهم كتب المصدر الثاني

مقدمة

ليس المقصد من هذا الكتاب اتهام القارئ، بل الحوار معه إيماناً من المؤلف بأن الفطرة الإسلامية لدى كل مسلم عاقل تنبض في قلبه بالحق.. وإذا حدث وتراكمت على هذه الفطرة موروثات تخالف الحق فإن آيات القرآن العزيز كفيلة بتنقية هذه الفطرة لتعود إلى صفائها الأول الذي كانت عليه في عصر النبوة الذهبي الإسلامي.

ولذلك فالمؤلف يدعو القارئ ليتصفح معه كتاب الله ويتدبر آياته الكريمة طلباً للهداية له ولجميع المسلمين..

ومنهج المؤلف هو أن يدع الحقائق القرآنية تتحدث من خلال الموضوع الذي يعرض له. وكل ما يفعله المؤلف هو أن يختار عنواناً ينطق بمدلول الحقيقة القرآنية التي يتضمنها الكتاب، ثم يستعين بالآيات يؤيد بعضها بعضاً.. وبعد هذا فالمؤلف يحتفظ في قلبه بالحب لكل المسلمين الذين يجمعهم حب القرآن، وهو يدعو الله تعالى أن يهديه ويهدي كل أخوة الإسلام إلى ما يحبه تعالى ويرضاه..

والله تعالى هو المستعان..

القاهرة ١٩٩١

الفصل الأول

القرآن الكريم
هو المصدر الوحيد للإسلام

القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد للمسلم.

القرآن الكريم ما فرط في شيء.

يستسهل بعضنا أن يؤمن بكتب أخرى تكتسب لديه قداسة ويضعها إلى جانب القرآن العزيز. وبعضنا يعتقد أنه يكفيه أن يؤمن بالقرآن وأنه لا يضره أن يؤمن بكتب أخرى مع القرآن كتبها الأئمة ونسبوها للنبي عليه السلام.. ولو تدبرنا كلام الله العزيز في القرآن الكريم لتأكدنا أن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي ينبغي أن يتمسك به المسلم دون غيره، ولتأكدنا أن القرآن الكريم ليس محتاجاً لهذه الكتب البشرية، فالقرآن الكريم ما فرط في شيء ونزل تبياناً لكل شيء وجاءت به تفصيلات كل شيء يحتاج للتبيين والتفصيل..

فالقرآن هو الذكر وهو الحكمة وهو الصراط المستقيم وهو الحق الذي لا ريب فيه والقرآن في النهاية هو المصدر الوحيد للإسلام.. هذا ما ينبغي أن يكون.. تعالوا بنا نستعرض آيات الله في هذا الموضوع..

القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد للمسلم

لا إله إلا الله ولا كتاب للمسلم إلا القرآن كتاب الله..

يقول الله تعالى في ذاته العلية ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ

رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾(١).

فالله وحده هو الولي الذي لا يشرك في حكمه أحداً.

والقرآن هو وحده الكتاب الذي أوحي للنبي ولا مبدل لكلماته ولن يجد النبي غير القرآن كتاباً يلجأ إليه..

والنبي لا يلجأ إلا لله تعالى رباً وإلهاً ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾(٢).

والنبي أيضاً ليس لديه إلا القرآن ملتحداً وملجأ ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾(٣) هذا بالنسبة للنبي عليه السلام.. فكيف بنا نحن؟.

المؤمن يكتفي بالله تعالى رباً ويكتفي بالقرآن كتاباً.

عن اكتفاء المؤمن بالله تعالى رباً يقول تعالى ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾(٤).

فالله تعالى هو وحده الخالق وهو وحده الرازق ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٥).

لذا لابد للمؤمن أن يكتفي به تعالى رباً ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾(٦).

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة الجن، الآية ٢٢.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٧.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٣٦.

(٥) سورة فاطر، الآية: ٣.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

والمؤمن طالما يكتفي بالله تعالى رباً فهو أيضاً يكتفي بكتاب الله في الهداية والتشريع يقول تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾(1).

ويلاحظ أن الآيات الكريمة التي تحض على الاكتفاء بالله رباً وعلى الاكتفاء بالقرآن كتاباً جاءت كلها بأسلوب الاستفهام الإنكاري.. أي الإنكار على من يتخذون أولياء وأرباباً مع الله والذين يتخذون كتباً أخرى مع كتاب الله.

وأوضح رب العزة أن في الاكتفاء بالقرآن رحمة وذكرى للمؤمنين ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

فمن رحمة الله بنا أن فرض علينا كتاباً واحداً ميسراً للذكر ومصوناً عن التحريف وجعله واضحاً مبيناً، له بداية وله نهاية، ولم يتركنا إلى كتب أخرى كتبها بشر مثلنا يجوز عليهم الخطأ والنسيان والهوى والعصيان، ثم هم مختلفون متناقضون، ولا أول لكتبهم ولا نهاية لها..

القرآن هو الحق الذي لا ريب فيه، وما عداه ظن ولا ينبغي إتباع الظن..

يقول تعالى عن القرآن ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾(2).

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.

(2) سورة البقرة، الآية: ٢.

فالقرآن لا مجال فيه للريب أو الشك، وحقائق القرآن مطلقة، وما عداه من كتب يعترف أصحابها بأن الحق فيها نسبي أي يحتمل الصدق والكذب.. وما يحتمل الصدق والكذب يدخل في دائرة الظن..

ودين الله الحق لا يقوم إلا على الحق اليقيني الذي لا ريب فيه حتى لا تكون للبشر حجة على الله يوم القيامة. لذا ضمن الله حفظ كتابه من كل عبث أو تحريف ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[1].

ويقول تعالى عن كتابه الحكيم ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾[2].

أما أديان البشر الوضعية فالمجال واسع فيها للظن والريب..

لذا يأمرنا جل وعلا باتباع الحق الذي لا ريب فيه والإعراض عن المعتقدات التي تقوم على الظن، يقول تعالى في الاعتقاد القائم على الظن ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[3].

ويقول تعالى في التشريع القائم على الظن ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٢) سورة فصلت، الآيتان: ٤١: ٤٢.

(٣) سورة يونس، الآية: ٦٦.

كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[1].

ويقول تعالى يقارن بين اتباع الحق واتباع الظن ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[2]. ويتكرر نفس المعنى في سورة النجم ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[3]. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[4].

وصدق الله العظيم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

ولكن المشكلة أن الغالبية العظمى من البشر ينبذون الحق ويتبعون الظن، يقول تعالى يخاطب النبي الكريم ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾[5].

ومشكلتنا نحن المسلمين أن علماء الحديث يؤكدون أن الأغلبية العظمى من الأحاديث المنسوبة للرسول ﷺ هي أحاديث آحاد ويؤكدون أنها تفيد الظن ولا تفيد اليقين..ومع ذلك يأمرنا بعضهم باتباع الظن مع أن الظن لا يغني من الحق شيئاً.. هدانا الله إلى الطريق المستقيم..

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣٦.

(٣) سورة النجم، الآية: ٢٣.

(٤) سورة النجم، الآية: ٢٨.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

ويلفت النظر أن الله تعالى وصف ذاته العلية بأنه الحق، ووصف إنزال القرآن بأنه أنزله بالحق، ووصف القرآن نفسه بأنه الحق..

عن وصف الله تعالى بالحق يقول الحق تعالى ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾(١). ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَاطِلُ﴾(٢).

وعن إنزال القرآن بالحق يقول تعالى ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾(٣).

وعن وصف القرآن بأنه الحق يقول تعالى ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾(٤). ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾(٥).

بل إن الله تعالى يصف الحق القرآني بأنه الحق اليقيني المطلق، يقول تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾(٦). ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾(٧).

وجاءت الصيغة بالتأكيد..

فإذا كان الله قد أكرمنا بالحق اليقيني فكيف نأخذ معه

---

(١) سورة يونس، الآية ٣٢.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٣٠.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٠٥.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٣١.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٦٢.

(٦) سورة الواقعة، الآية: ٩٥.

(٧) سورة الحاقة، الآية: ٥١.

أقاويل ظنية.. مع أنه لا مجال في الدين الحق للظن؟

القرآن هو الحديث الوحيد الذي ينبغي الإيمان به

وصف الله تعالى القرآن بأنه حديث وتحدى المشركين أن يأتوا بحديث مثله فقال تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[1].

ووصف القرآن بأنه أحسن الحديث ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾[2].

فإذا أكرمنا الله تعالى بأحسن الحديث فكيف نتركه إلى غيره؟..

وأوضح رب العزة أن الصدق كله في حديث الله تعالى في القرآن ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[3].

وتوعد الله تعالى من يكذب بحديثه في القرآن ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4].

وأكد رب العزة أن الإيمان لا يكون إلا بحديثه تعالى في

(١) سورة الطور، الآيتان: ٣٣، ٣٤.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ٨٧.
(٤) سورة القلم، الآية: ٤٤.

القرآن الكريم فقال في آخر سورة المرسلات ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

وتكرر نفس المعنى في قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾[2].

وهي دعوة لنا لنتفكر قبل أن يأتي الأجل المحتوم..

بل إن الله تعالى يجعل من الإيمان بحديث القرآن وحده مقترناً بالإيمان به تعالى وحده، فكما لا إيمان إلا بحديث القرآن وحده فكذلك لا إيمان إلا بالله وحده إلهاً. وكما أن المؤمن يكتفي بالله وحده إلهاً فهو أيضاً يكتفي بحديث القرآن وحده حديثاً.. وجاءت تلك المعاني في قوله تعالى ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3].

وذلك الذي يعرض عن آيات الله شأنه أنه يتمسك بأحاديث أخرى غير القرآن سماها القرآن ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ يقول تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ

(١) سورة المرسلات، الآية: ٥٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.
(٣) سورة الجاثية، الآيات: ٦ ـ ٨.

ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

وحين يقول رب العزة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإنه تعالى يقرر حقيقة تنطبق على كل مجتمع بشري فيه ناس في أي زمان ومكان..

الوحي المكتوب الذي نزل على الرسول هو سور وآيات في القرآن فقط

تحدى الله تعالى المشركين أن يأتوا بسورة مثل القرآن ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[2].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾[3]. والشاهد هنا أن الذي نزله الله تعالى على رسوله الكريم هو سور، وليست هناك سور إلا في القرآن. إذن فالقرآن هو الوحي الوحيد المكتوب الذي نزل على الرسول ﷺ.

البشر مطالبون يوم القيامة بما نزل على الرسل من آيات الوحي.. فالوحي آيات

يوم القيامة سيقول تعالى ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾[4] فالرسل كانوا يقصون آيات الله التي أنزلها عليهم..

---

(١) سورة لقمان، الآيتان: ٦، ٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٣) سورة يونس، الآية: ٣٨.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.

ويقول تعالى في أصحاب النار ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ..﴾[1]. أي كـان الرسل يتلون آيات الله. ومن أعرض عنها دخل النار وحشره ربه أعـمـى.. ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ...﴾[2].

إذن نحن مطالبون بالإيمان بالآيات التي نزلت على النبي، وليست هناك آيات من الوحي خارج القرآن الكريم.. إذن هو القرآن الكريم وكفى...

لا مثيل للقرآن كما أنه لا مثيل لله تعالى

يقول تعالى عن ذاته العلية ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[3]. ويقول تعالى عن كتابه الحكيم ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾[4].. إذن لا مثيل للقرآن كما أنه لا مثيل لله..

وكما أن الله تعالى أحد في ذاته وصفاته ولا يشبهه أحد من المخلوقات ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ

(١) سورة الزمر، الآية: ٧١.

(٢) سورة طه، الآيات: ١٢٥ ـ ١٢٧.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾[١]
فإنه ليس في استطاعة المخلوقات أن تأتي بسورة واحدة مثل السورة القرآنية ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[٢]. ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾[٣].

ليس هناك مثيل للقرآن، وليس هناك مثيل لأي سورة من سور القرآن.. ومع ذلك يقولون إن الله أوحى للنبي القرآن ومثله معه فأين ذلك المثيل إذا كان الله تعالى قد نفى وجوده؟

القرآن الكريم ما فرط في شيء

بيان القرآن في داخل القرآن، القرآن كتاب مبين في ذاته

يقول تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾[٤].

كتاب الله هو الكتاب المبين بذاته، وآياته موصوفة بالبينات أي التي لا تحتاج في تبيينها إلا لمجرد القراءة والتلاوة والتفكر والتدبر فيها. والذي جعل الكتاب مبيناً وجعل آياته بينات هو رب العزة القائل ﴿بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ﴾ والقائل عن كتابه ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[٥] .﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ

(١) سورة الإخلاص، الآيات: ١ - ٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣
(٣) سورة يونس، الآية: ٣٨.
(٤) سورة البقرة، الآيتان: ١٥٩، ١٦٠.
(٥) سورة القمر، الآية: ٢٢.

بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾[1].
﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾[2].

وكل المطلوب منا أن نتلو القرآن وإذا تلوناه نطقت آياته البينات بنفسها والتي لا تحتاج منا إلا لمجرد النطق وعدم الكتمان. لذا فإن الله تعالى يجعل الكتمان ـ كتمان الآيات ـ هو عكس التبيين لذا فإن الله تعالى يهدد من يكتم آيات الله البينات التي بيّنها في كتابه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ..﴾

ويقول تعالى عن أهل الكتاب ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[3]. فشرح تعالى تبيين البشر للكتاب بأنه عدم كتمانه، أي تلاوته وقراءته، ومتى تلونا الكتاب المبين نطقت آياته البينات لمن يريد تدبرها.

والآيات التي تتحدث عن بيان القرآن ووصفه بالكتاب المبين والبينات أكثر من أن تستقصى ومع ذلك فإن منا من يعتقد أن كتاب الله غامض مبهم يحتاج إلى من يفسره.. هذا مع أن الله تعالى يقول عن كتابه ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[4]. فأحسن تفسير للقرآن هو في داخل القرآن.

(١) سورة مريم، الآية: ٩٧.
(٢) سورة الدخان، الآية: ٥٨.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٣٣.

وابن كثير يعترف في بداية تفسيره أن أحسن التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن..

القرآن ما فرط في شيء ونزل تبياناً لكل شيء وجاء مفصلاً لكل شيء:

يقول تعالى ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[1].

ويقول تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[2].

ويقول تعالى ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[3].

والمؤمن بالقرآن لا يبادر باتهام كتاب الله بأنه فرط وجاء غامضاً يحتاج لما يبينه وجاء مجملاً يحتاج لمن يفصله..

والمؤمن بالقرآن يؤمن بأن الله تعالى صادق فيما يخبر به من أن القرآن ما فرط في شيء وأنه نزل تبياناً لكل شيء وتفصيلاً لكل شيء.

وحتى لا تتلاعب به أهواء السوء لتقول له وأين كذا وكذا في القرآن عليه أن يتفهم منطق القرآن قبل أن يبادر بالاتهام..

يقول تعالى ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ والتفريط هو إغفال الشيء الضروري الهام وتركه، ونحن مثلاً لا نواجه مشكلة في عدد ركعات الصلاة ولا في كيفيتها. والله تعالى - وهو الأعلم

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٢) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١١١.

بالماضي والحاضر والمستقبل ـ لو عرف أننا سنواجه مشاكل في موضوع الصلاة لأوضح لنا عددها وكيفيتها ومواقيتها بالتحديد.. ولكنه تعالى أنزل القرآن يوضح ما نحتاج إليه فعلاً في الحاضر وفي المستقبل وأنزل القرآن بالحق والميزان ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾[1]. فلا مجال فيه لزيادة أو تزيّد لسنا في حاجة إليه، ولو نزل القرآن يحكي لنا تفصيل الصلاة ونحن نعرفها ونمارسها منذ الصغر لكان في ذلك شيء من الهزل، ولا مجال للهزل في كتاب الله ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾[2].

لذا فالقرآن ما فرط في شيء نحتاج إليه.

ويقول تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ والتبيان هو التوضيح لما يستلزم البيان والتوضيح. والشيء الواضح بذاته لا يحتاج لما يبينه ويوضحه وإلا كان فضولاً في الكلام وثرثرة لا حاجة إليها..

والله سبحانه وتعالى أنزل كتابه محكماً لا مجال فيه للغو والتزيد لذا كان البيان فيه لما يتطلب البيان، وكل شيء يستلزم البيان والتوضيح جاء في القرآن بيانه وتوضيحه. وما ليس محتاجاً لبيان فلا مجال فيه للتفصيل والبيان في كتاب فُصّلت آياته ثم أحكمت من لدن حكيم خبير.

لذا يرتبط «البيان في القرآن» بالهدى والرحمة والبشرى

---

(١) سورة الشورى، الآية ١٧.

(٢) سورة الطارق، الآيات: ١١ ـ ١٤.

للمسلمين ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ فبيان القرآن ﴿هُدًى﴾ للباحث عن الهدى وسط ركامات من الغموض والحيرة، وبيان القرآن ﴿رَحْمَتَ﴾ به حين يبين له ما خفي ويصل به إلى شاطئ الأمان والرحمة الإلهية وهناك ﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بعد الهدى والرحمة..

وأيضاً ترتبط (تفصيلات القرآن) بالهدى والرحمة، يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾(١). فالتفصيلات القرآنية التي شملت كل شيء جاءت هدى ورحمة لأولئك الذين يحتاجون إلى هذه التفصيلات. وإذا كانت الأمور واضحة لا تحتاج إلى تفصيل وإيضاح فمن العبث توضيح ما هو واضح، وتعالى الله عن العبث.

وقد تتحول التفصيلات في كلام البشر إلى لغو وثرثرة فيما لا حاجة إليه ولا طائل من ورائه، وهذا ما تنزهت عنه تفصيلات الكتاب العزيز التي جاءت فيما يحتاج إلى تفصيل، لذا ارتبطت تفصيلات القرآن الكريم بالعلم المحكم وفي ذلك يقول تعالى ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(٢).

ويقول تعالى عن العلم الإلهي الذي يحكم التفصيلات القرآنية لتكون هدى ورحمة للمؤمنين ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

ولذا فإن العلماء المحققين المؤمنين بتمام القرآن والمكتفين

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٢.

(٢) سورة هود، الآية: ١.

به هم فقط الذين يفهمون تفصيلات القرآن. وفى ذلك يقول تعالى ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1] ..﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2] ..﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[3]. ويقول تعالى ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③﴾[4].

والذين لا يعلمون هم الذين يسعون في آيات الله معاجزين مكذبين ببيان القرآن وتفصيله لكل شيء، يقولون: أين عدد الركعات في القرآن أين كيفية الصلاة كيف نحج وبعضهم يتساءل ساخراً: أين أيام الأسبوع في القرآن.. والله تعالى يقول ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ⑤﴾[5] قال عن ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟﴾ في الماضي. فأين الحاضر؟. يقول تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ㊳﴾[6].

والله تعالى نسأل ألا نكون من الذين يسعون في آيات الله معاجزين.

القرآن هو الذكر الذي نزل على النبيﷺ.

يقول تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.
(٢) سورة يونس، الآية: ٢٤.
(٣) سورة الروم، الآية: ٢٨.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٣.
(٥) سورة سبأ، الآية: ٥.
(٦) سورة سبأ، الآية: ٣٨.

فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1].

يسيء الناس فهم قوله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ..﴾ والسبب أنهم يقطعون هذا الجزء من الآية عما قبله ويتخذونه دليلاً على وجود مصدر آخر مع القرآن، وعندهم أن هناك ذكراً نزل للنبي يبين به القرآن الذي نزل للناس. وحتى نفهم الآية الفهم الصحيح علينا أن نتدبر السياق القرآني، فالله يقول عن الأنبياء السابقين ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ﴾ أي إن الله تعالى أرسل الأنبياء السابقين لأهل الكتاب وأنزل معهم البينات والزبر ـ أي الكتب ـ ثم يوجه الخطاب للنبي فيقول ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي لتوضح لأهل الكتاب ما سبق إنزاله إليهم من البينات والزبر لعلهم يتفكرون.

إن كلمة (الناس) في قوله تعالى ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ لا تدل هنا على عموم البشر وإنما تفيد حسب السياق أهل الكتاب الذين نزلت فيهم الكتب السماوية السابقة فاختلفوا فيها وحرفوا فيها بعض ما جاء بها.

واستعمال كلمة (الناس) لتدل على طائفة معينة أشار إليها السياق ـ ورد في القرآن كثيراً كقوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ

---

(١) سورة النحل، الآيتان: ٤٣، ٤٤.

إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾[1].. وكقوله تعالى ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2]. فكلمة الناس هنا لا تعني عموم البشر وإنما تعني طائفة معينة ورد ذكرها في السياق القرآني الذي يتحدث عن الموضوع.

وبالنسبة لقوله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فإن المقصود بكلمة الناس هو أهل الكتاب طالما تتحدث الآية عن الأنبياء السابقين وما أنزل الله عليهم من البينات والزبر وأهل الذكر الذين لديهم علم بالكتب السماوية السابقة.

وتقول الآية عن سبب من أسباب نزول القرآن ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فوظيفة القرآن لأهل الكتاب هي تبيين الحق في الكتب السماوية السابقة بعد ما لحقها من تحريف وتغيير وإخفاء وكتمان، وفي ذلك يقول تعالى ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾[3]. ويقول تعالى عن دور القرآن في توضيح الحق لبني إسرائيل ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٤٦.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٥.

(٤) سورة النمل، الآية: ٧٦.

ويقول أيضاً ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

والآية السابقة في سورة النحل فسرتها آية لاحقة في نفس السورة. يقول تعالى ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[2]. وكل ذلك يؤكد أن القرآن هو الذكر الذي نزل على النبي ليبين لأهل الكتاب ما نزل لهم من قبل واختلفوا فيه.. وذلك يعني أيضاً أن الذي نزل على النبي كتاب واحد وذكر واحد وقرآن واحد لا مثيل له ولا شيء معه.

وقد جاء وصف القرآن بالذكر كثيراً، منها ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[3]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾[4]. ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾[5]. ويقول تعالى يؤكد أن ذكر الله في القرآن وحده ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾[6].

(١) سورة النحل، الآيتان: ٤٣، ٤٤.
(٢) سورة النحل، الآيتان: ٦٣، ٦٤.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٤. وسورة ص، الآية: ٨٧.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٩.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٥٠.
(٦) سورة الإسراء، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

فالمشركون كانوا ينفرون من النبي لأنه يذكر ربه من خلال ما ورد في القرآن الكريم فقط. فقال تعالى ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾. والشاهد هو قوله تعالى ﴿وَحْدَهُۥ﴾ التي ترجع لله تعالى والقرآن معاً. ومن الإعجاز البلاغي أن تأتي كلمة ﴿وَحْدَهُۥ﴾ ليعود الضمير فيه على الله وكتابه بضمير المفرد وذلك يؤكد لنا أن المسلم هو من يكتفي بالله ﴿وَحْدَهُۥ﴾ وبالقرآن ﴿وَحْدَهُۥ﴾ أو من يكتفي بالله وكتابه ﴿وَحْدَهُۥ﴾. أما المشرك فيحلو له دائماً أن تتعدد لديه المصادر والآلهة ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ وهذا ما توضحه الآية..

نسأل الله تعالى لنا جميعاً الهداية...!!

القرآن كامل تام لا يحتاج لشيء آخر معه:

يقول تعالى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾(١). إذن تمت كلمة الله لنا بالقرآن ولا مبدل لكلمة الله..

ويقول تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾(٢). إذن تمت نعمة الله علينا بالإسلام الذي ارتضاه لنا ديناً وذلك باكتمال وحي القرآن.

ويقول تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ..﴾[1].

ويقول تعالى ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا..﴾[2].

ليس هناك حد أقصى لكلمات الله التي لا تنفد. والقرآن كتاب مثاني يتكرر فيه المعنى مرة ومرات، وفيه تفصيل وتوضيح وتبيين على حكمة وعلم. وتأتي أحياناً كلمة ﴿قُلۡ﴾ تؤكد معنى سبق إيراده في القرآن وذلك حتى تكون أقوال الرسول من داخل القرآن وليست من عنده أو من خارج القرآن.

ولو أراد الله أن تكون كلماته لنا بلا نهاية لفعل وحينئذ لن تكفيها الأشجار أقلاماً ولا البحار مداداً. ولكن شاءت رحمة الله بنا أن أنزل لنا كتاباً واحداً تاماً كاملاً مفصلاً مبيناً وأمرنا بالاكتفاء به.

ولذلك كان الاكتفاء بالقرآن رحمة ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١﴾[3] وكان الله تعالى شهيداً على أن كتابه يكفي فيقول تعالى ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٥٢﴾[4].

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٥٢.

القرآن هو صراط الله المستقيم وما عداه خروج عن الصراط المستقيم

في الفاتحة ندعو الله تعالى فنقول ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ والصراط المستقيم هو القرآن الكريم، يقول تعالى عن كتابه الكريم ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾[1].

ويقول تعالى يأمر باتباع القرآن الصراط المستقيم دون غيره ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾[2]. فالله تعالى أوصى باتباع القرآن صراطه المستقيم ونهى عن اتباع غيره من السبل حتى لا يقع المسلمون في التفرق والابتعاد عن سبيل الله. وحدث ما حذر منه رب العزة فاختار المسلمون أحاديث نسبوها للنبي عليه السلام واختلفوا في أسانيدها، وقام (علم الحديث) على تنقيح تلك الروايات وتلك الأسانيد، وقوله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ أي لا تتبعوا الطرق، فالسبيل هو الطريق، ومن العجيب أن علماء الحديث يقيمون تلك الأسانيد وتلك الروايات على سلاسل و«طرق» فيقولون إن الحديث من «السلسلة» الفلانية، وإن تلك الرواية جاءت من «طريق فلان» أي إنهم حين تنكبوا الصراط المستقيم ونبذوه وقعوا في اتباع السبل وتناسوا قول الله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ وتلك السلاسل والطرق التي قام عليها علم الحديث

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

أوقعته في تفرق واختلاف لا ينتهي، وصدق ما نبأ به كلام الله العزيز.

والله تعالى حذرنا من التفرق وقال لرسولنا ﷺ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾[1]. أي أمره بالتبرؤ ممن فرقوا دينهم.

والنبي يوم القيامة سيعلن براءته من أولئك الذين تركوا كتاب الله وهجروه جرياً وراء مصادر أخرى ومعتقدات ما أنزل الله بها من سلطان، يقول تعالى ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾[2].

والقرآن هو الصراط المستقيم وحده..

ويستحيل هندسياً أن يكون هناك أكثر من كتاب واحد يوصف بأنه الصراط المستقيم. وعلم الهندسة يقول إن الخط المستقيم هو أقصر ما يوصل بين نقطتين ولا يمكن أن يتعدد أكثر من خط مستقيم واحد بين نقطتين.. إذن لابد أن يكون خطاً واحداً ذلك الذي يوصف بأنه الخط أو الطريق المستقيم. وعليه فالصراط المستقيم أو الخط المستقيم في دين الله تعالى لا يتعدد. وطالما هو الكتاب الحكيم الكامل التام فليس معه كتاب آخر.

ومع أننا ندعو الله في صلاتنا بأن يهدينا الصراط المستقيم

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٩.

(٢) سورة الفرقان، الآيتان: ٣٠، ٣١.

فإننا في العادة نكون غافلين عن معنى الصراط المستقيم، وذلك بسبب إبليس الذي حدد مهمته في إبعادنا عن الصراط المستقيم وتحويله إلى طرق وسبل شتى ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾[١].

اللهم اهدنا الصراط المستقيم...!!

القرآن هو الحكمة

يقول تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[٢].

والشائع بين الناس أن الكتاب شيء والحكمة شيء آخر وحجتهم أن العطف بالواو يقتضي المغايرة إذن فالكتاب شيء آخر يغاير ويختلف عن الحكمة.

والواقع أن العطف بالواو في القرآن قد يكون للتبيين والتوضيح والتفضيل وليس للمغايرة. ودليلنا قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾[٣]. فالفرقان والضياء والذكر كلها أوصاف توضّح وتفصّل وتبين معنى التوراة. وفي موضع آخر يقول تعالى عن التوراة في حديثه تعالى عن موسى وهارون ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾[٤]. فالتوراة أو الكتاب المستبين هي نفسها الفرقان والضياء والذكر. والعطف

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٤٨.

(٤) سورة الصافات، الآية: ١١٧.

هنا معناه التوضيح والتفصيل لمعنى الشيء الواحد وليس المغايرة.

والله تعالى يقول لعيسى ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[1].

ويقول تعالى عن عيسى ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾[2].

فالكتاب والحكمة أوصاف للتوراة والإنجيل، ولا يعني ذلك أن الله تعالى علّم عيسى أربعة أشياء منفصلة مختلفة، والدليل هو قوله تعالى عن عيسى ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾[3]. فالحكمة هنا تعني الإنجيل الذي جاء به عيسى. والآية هنا تلخص ما جاء في الآيتين السابقتين عن الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل. إذن فالحكمة هي كتاب الله.

وبالنسبة لخاتم النبيين فقد جاءت في القرآن أوامر عديدة متتالية في سورة الإسراء تبدأ بقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ..﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ وفي النهاية هذه الأوامر القرآنية يقول تعالى ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ..﴾[4]. إذن فالحكمة هي آيات القرآن، والقرآن هو الحكمة فهو كلام العزيز الحكيم الذي جعله كتاباً محكماً ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[5].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٨.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٦٣.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٣٩.
(٥) سورة هود، الآية: ١.

إن الحكمة من أوصاف القرآن ومن مرادفات الكتاب العزيز، شأنها شأن كلمات أخرى مثل الفرقان والنور.

ودليلنا الأخير على أن الحكمة هي القرآن قوله تعالى ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾[1]. فلو كانت الحكمة شيئاً آخر غير القرآن لقال «وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم بهما..»، ولكن لأن الحكمة هي القرآن فقد قال ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ فهما شيء واحد لذا عاد الضمير عليهما بصيغة المفرد..

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.

الفصل الثاني

القرآن والنبي والرسول

الفرق بين الرسول والنبي

هل للنبي أن يجتهد في التشريع

الفرق بين الرسول والنبي

يخطئ الناس في فهم الأمر بطاعة الرسول واتباع الرسول، وذلك لأنهم يخطئون في فهم الفارق بين مدلول النبي ومدلول الرسول..

«النبي» هو شخص محمد بن عبد الله في حياته وشؤونه الخاصة وعلاقاته الإنسانية بمن حوله، وتصرفاته البشرية.

ومن تصرفاته البشرية ما كان مستوجباً عتاب الله تعالى، لذا كان العتاب يأتي له بوصفه النبي، كقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ..﴾[1]. ويقول تعالى في موضوع أسرى بدر ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾[2]. ويقول له ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾[3]. وحين استغفر لبعض أقاربه قال له ربه تعالى ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي

(١) سورة التحريم، الآية: ١.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٧.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦١.

قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾(١). وعن غزوة ذات العسرة قال تعالى ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ..﴾(٢).

وقال تعالى يأمره بالتقوى واتباع الوحي والتوكل على الله وينهاه عن طاعة المشركين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ..﴾(٣). كل ذلك جاء بوصفه النبي.

وكان الحديث القرآني عن علاقة محمد عليه السلام بأزواجه أمهات المؤمنين يأتي أيضاً بوصفه النبي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾(٤). ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا..﴾(٥). وكان القرآن يخاطب أمهات المؤمنين، فلا يقول يا نساء الرسول وإنما ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ * يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ﴾(٦).

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٣.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٧.

(٣) سورة الأحزاب، الآيات: ١ - ٣.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢٨.

(٥) سورة التحريم، الآية ٣.

(٦) سورة الأحزاب، الآيات: ٣٠ - ٣٢.

وكان الحديث عن علاقته بالناس حوله يأتي أيضاً بوصفه النبي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾(١) ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾(٣) ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾(٤). وهكذا فالنبي هو شخص محمد البشري في سلوكياته وعلاقاته الخاصة والعامة، لذا كان مأموراً بصفته النبي باتباع الوحي.

أما حين ينطق النبي بالقرآن فهو الرسول الذي تكون طاعته طاعة لله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ﴾(٥) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾(٦) والنبي محمد بصفته البشرية أول من يطيع الوحي القرآني وأول من يطبقه على نفسه.. وهكذا ففي الوقت الذي كان فيه (النبي) مأموراً باتباع الوحي جاءت الأوامر بطاعة (الرسول) أي طاعة النبي حين ينطق بالرسالة أي القرآن ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ..﴾(٧). ولم يأت مطلقاً في القرآن «أطيعوا الله وأطيعوا النبي» لأن الطاعة ليست لشخص النبي وإنما للرسالة أي للرسول. أي لكلام الله تعالى الذي نزل على

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ١٣.
(٥) سورة النساء، الآية: ٨٠.
(٦) سورة النساء، الآية: ٦٤.
(٧) سورة النور، الآية: ٥٤.

النبي والذي يكون فيه شخص النبي أول من يطيع.. كما لم يأت مطلقاً في القرآن عتاب له عليه السلام بوصفه الرسول.

ولكلمة النبي معنى محدد هو ذلك الرجل الذي اختاره الله من بين البشر لينبئه بالوحي ليكون رسولاً. أما كلمة الرسول فلها في القرآن معان كثيرة هي:

* الرسول بمعنى النبي: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[1].

* الرسول بمعنى جبريل ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾[2].

* الرسول بمعنى الملائكة: ملائكة تسجيل الأعمال ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾[3]. ملائكة الموت ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾[4].

* الرسول بمعنى ذلك الذي يحمل رسالة من شخص إلى شخص آخر، كقول يوسف لرسول الملك ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.
(٢) سورة التكوير، الآيات: ١٩ - ٢٣.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٨٠.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٣٧.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٥٠.

رَبِّكَ..﴾[1].

* الرسول بمعنى القرآن أو الرسالة، وبهذا المعنى تتداخل معنى الرسالة مع النبي الذي ينطق بالوحي وينطبق ذلك على كل الأوامر التي تحث على طاعة الله ورسوله.. فكلها تدل على طاعة كلام الله الذي أنزله الله على رسوله وكان الرسول أول من نطق به وأول من ينفذه ويطيعه.

والرسول بمعنى القرآن يعني أن رسول الله قائم بيننا حتى الآن وهو كتاب الله الذي حفظه الله إلى يوم القيامة، نفهم هذا من قوله تعالى ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] أي إنه طالما يتلى كتاب الله فالرسول قائم بيننا ومن يعتصم بالله وكتابه فقد هداه الله إلى الصراط المستقيم. ينطبق ذلك على كل زمان ومكان طالما ظل القرآن محفوظاً، وسيظل محفوظاً وحجة على الخلق إلى قيام الساعة..

وكلمة الرسول في بعض الآيات القرآنية تعني القرآن بوضوح شديد كقوله تعالى ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[3].

فالآية تقرر حكماً عاماً مستمراً إلى قيام الساعة بعد وفاة محمد عليه السلام. فالهجرة في سبيل الله وفي سبيل رسوله ـ أي القرآن ـ قائمة ومستمرة بعد وفاة النبي محمد وبقاء القرآن أو

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠١.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٠.

الرسالة.

وأحياناً تعني كلمة «الرسول» القرآن فقط وبالتحديد دون معنى آخر. كقوله تعالى ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾[1].

فكلمة «ورسوله» هنا تدل على كلام الله فقط ولا تدل مطلقاً على معنى الرسول محمد. والدليل أن الضمير في كلمة «ورسوله» جاء مفرداً فقال تعالى ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ والضمير المفرد يعني أن الله ورسوله أو كلامه ليسا اثنين وإنما واحد فلم يقل «وتعززوهما وتوقروهما وتسبحوهما بكرة وأصيلاً». والتسبيح لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى وحده. ولا فارق بين الله تعالى وكلامه، فالله تعالى أحد في ذاته وفي صفاته ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾.

ويقول تعالى ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[2].

ولو كان الرسول في الآية يعني شخص النبي محمد لقال تعالى «أحق أن يرضوهما» ولكن الرسول هنا يعني فقط كلام الله لذا جاء التعبير بالمفرد الذي يدل على الله تعالى وكلامه.

إذن فالنبي هو شخص محمد في حياته الخاصة والعامة، أما الرسول فهو النبي حين ينطق القرآن وحين يبلغ الوحي ﴿يَا أَيُّهَا

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٢.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[1].

وفي الوقت الذي يأمر الله فيه النبي باتباع الوحي فإن الله تعالى يأمرنا جميعاً ـ وفينا النبي ـ بطاعة الله والرسول، أي الرسالة. ولم يأت مطلقاً «ما على النبي إلا البلاغ»، وإنما جاء ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[2] فالبلاغ مرتبط بالرسالة كما أن معنى «النبي» مرتبط ببشرية الرسول وظروفه وعصره وعلاقاته.

بين كلام الرسول وكلام النبي

عرفنا أن مدلول (النبي) هو شخص محمد عليه السلام في حياته وعلاقاته الخاصة والعامة وسلوكياته البشرية. أما الرسول فهو النبي محمد حين ينطق بالرسالة وحين يبلغ الوحي..

ومحمد (النبي) له كلام مع زوجاته وأصحابه، وله تصرفات باعتباره قائداً ومعلماً ورئيساً لدولة. ومحمد (الرسول) له كلام باعتباره رسولاً نزل عليه وحي الله ليبلغه للناس.. فما هو الفارق بين هذا وذلك؟.. نبدأ بمحمد الرسول وأقواله..

أقوال الرسول:

يلفت النظر تلك الكراهية الشديدة من المشركين للقرآن ومحاولتهم مع النبي أن يغيّر في كلام القرآن أو أن يبدله، وكان النبي يرد على مطلبهم هذا بإعلان خوفه من عذاب الله العظيم، اقرأ في ذلك قوله تعالى ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٩.

يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[١] كانوا يريدون منه أن يتحدث في الدين من خارج القرآن على أنه دين الله، ولكنه رفض خوفاً من عذاب يوم عظيم..

ولم ييأس المشركون، أحكموا الحصار والخداع حول النبي يداهنونه ويطمعون في أن يصلوا معه إلى حل وسط فحذره ربـــه ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾[٢] ولكنهم استمروا في سعيهم وكادوا أن يؤثروا على النبي ولكن عصمة الله للوحي كانت أسرع من كيدهم، وتعبير القرآن في وصف ما حدث أقوى مما يمكن قوله، يقول تعالى ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾[٣].

ونرجو من القارئ أن يتمعن في تدبر هذه الآيات ليصل إلى أي حد حاول المشركون مع النبي أن يتكلم في الدين خارج القرآن على أنه كلام الله، وفشلوا لأن حفظ الله تعالى للوحي القرآني فوق إمكانات البشر وفوق كيد المشركين.. وفي القرآن شهادة للنبي تبرئه

---

(١) سورة يونس، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) سورة القلم، الآيتان: ٨، ٩.

(٣) سورة الإسراء، الآيات: ٧٣ ـ ٧٥.

وتثبت أنه لم يتحدث في دين الله إلا بالقرآن كلام الله، وأنه لم يتقوّل على الله شيئاً، وهي قوله تعالى ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[1] فلو تقوّل النبي على الله شيئاً لم يقله رب العزة لعاقبه الله تعالى عقاباً شديداً يشهده الناس في عصر النبي ولا يستطيعون دفعه وحماية النبي منه ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ وحيث إن هذه العقوبة الهائلة لم تحدث فهي شهادة للنبي بأنه بلغ الرسالة كاملة في عصره ولم يتقوّل على الله شيئاً..

إن الدين هو لله، فالله تعالى هو الذي ينزله وحياً، وعلى الناس أن يخضعوا لهذا الوحي مهما تعارض مع أهوائهم، والرسول هو الذي يتلقى هذا الوحي ويبلغه بحذافيره ولا يملك أن يزيد أو ينقص منه شيئاً. والله تعالى قال عن خاتم النبيين عليه السلام ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾.. ليبرئ ساحة النبي من التحدث في دين الله من كلامه البشري، وفي نفس الوقت أمره أن يقول كذا وكذا.. وهذا سر تكرار كلمة «قل» في القرآن الكريم.

وكلمة «قل» من أهم الكلمات القرآنية وقد وردت في القرآن ٣٣٢ مرة، وهي تعني أن هناك أقوالاً محددة أمر الله تعالى رسوله أن يقولها للناس، وتميز القرآن الكريم بكثرة ورود كلمة «قل» على نحو يختلف به القرآن عن التوراة والإنجيل اللذين بين أيدينا.

وقد بشرت التوراة التي بين أيدينا بخاتم النبيين الذي يأتي من بني إسماعيل «يقيم الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك

---

(١) سورة الحاقة، الآيات: ٤٣ - ٤٧.

مثلي له تسمعون.. أقيم لهم نبياً من وسط أخوتهم مثلك واجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به»[١].

والشاهد هنا أن الكتب السماوية السابقة نبأت بخاتم النبيين الذي ينزل عليه الوحي يقول له قل كذا. ويصبح هذا جزءاً من الوحي المكتوب، أو بتعبير التوراة «واجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به».

وباستقراء المواضع القرآنية التي جاءت فيها كلمة «قل» نضع الملاحظة السريعة الآتية:

* أكثر ورود كلمة «قل» كان في الحوار مع شتى الأنماط البشرية والدينية.

هناك حوار مع المشركين مثل ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾[٢].

وهناك حوار مع أهل الكتاب ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[٣].

وهناك حوار مع المنافقين ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾[٤].

وهناك حوار مع المؤمنين ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ

(١) سفر التثنية ١٨/٥، ١٨.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٤) سورة النور، الآية: ٥٣.

رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ..﴾[1].

وهناك حوار مع كل البشر ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[2].

* وهناك «قل» في الإجابة عن أسئلة المؤمنين للرسول ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ * قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[3].

* وهناك «قل» في تشريع الدعاء والعقائد والعبادات ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[4].

* وهناك تكرار لكلمة «قل» في الآية الواحدة ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ..﴾[5].

* وتأتي «قل» لتؤكد معنى قرآنياً ورد في آيات أخرى لم تأت فيها كلمة «قل» فالله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦١.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٤.

وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١).

ومضمون الآيتين السابقتين تكرار في آيتين جاءت فيهما كلمة قل ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

وبالتوقف مع كل آية وردت فيها كلمة «قل» نتأكد أن القرآن كان يتابع النبي بإجابات مستفيضة ومتكررة عن كل شيء يحتاجه بحيث لم يكن لديه مجال أو متسع أو تصريح لأن يتكلم في دين الله من عنده خصوصاً وأن الله تعالى منع أن يتحدث النبي في الدين من عنده أو أن يتقول شيئاً ينسبه لله، وهذا يعني أن أقوال الرسول وأحاديثه هي في داخل القرآن من خلال آيات القرآن خصوصاً ما كان فيها الأمر الإلهي «قل» وفيها كل ما يحتاجه النبي والمسلمون.

وكان الرسول ينذر بالقرآن ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾(٣).

وكان يذكرهم بالقرآن ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا

(١) سورة لقمان، الآيتان: ٣٣، ٣٤.
(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٨٧، ١٨٨.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥١.

كَسَبَتْ﴾[1] ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[2] وكان يبشرهم بالقرآن ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾[3] وكان يجاهدهم بالقرآن ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[4].

كان عليه السلام «خلقه القرآن» وحقيق به حينئذ أن يكون على خلق عظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[5] والخُلُق في المفهوم القرآني هو الدين.. وهل هناك أعظم من دين الله!.

وخارج نطاق الرسالة كانت للنبي أقوال وتصرفات في حدود بشريته وتعاملاته الخاصة والعامة ومسؤولياته وعلاقاته.. فهل هذه الأقوال والأفعال تعتبر جزءاً من الدين؟

أقوال النبي: محمد عليه السلام في حياته خارج الوحي كان حاكماً وقائداً عسكرياً وزوجاً وصديقاً لأصحابه وجاراً في المسكن، وكان مثلاً أعلى في ذلك كله، وكان فصيح اللسان وقد نجح في إبلاغ الدعوة وتكوين الأمة وإقامة الدولة، وقد واجه في حياته مشاكل سياسية وشخصية وقد تغلب عليها ونجح في النهاية بمهارته ولباقته وكياسته، وبالطبع انعكس عليه أحياناً ضعف الإنسان في داخله أو من المحيطين به، وأقواله وأفعاله خارج الوحي القرآني كانت تعكس ذلك..

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٠.

(٢) سورة ق، الآية: ٤٥.

(٣) سورة مريم، الآية: ٩٧.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٥٢.

(٥) سورة القلم، الآية: ٤.

والقرآن ذكر أقوالاً للنبي وامتدحه في بعضها وعاتبه في بعضها الآخر ونعطي أمثلة:

* في غزوة بدر خرج المسلمون بعدد قليل ليواجهوا قافلة ففوجئوا بقدوم جيش ضخم يفوقهم عدداً وعدة، وكره المسلمون دخول الحرب خوفاً، والقرآن يصور ذلك الموقف فيقول ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾(١).

وفى هذا الموقف انبرى القائد نبي الله يشجع أصحابه، وسجل الله له هذا «القول» وذكر مقالته في هذا الشأن في معرض المدح ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝١٢٤﴾(٢).

قال لهم النبي في ذلك الموقف: ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة. إذن هذا حديث للنبي القائد في معركة بدر ذكره القرآن في معرض المدح.

* وفي غزوات ذات العسرة تثاقل المنافقون عن الخروج بينما جاء بعض فقراء المسلمين يريدون الخروج ولكن ليس معهم راحلة ولا مؤونة فاعتذر لهم النبي قائلاً «لا أجد ما أحملكم عليه» ونزل القرآن يروي الحادثة ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ٥، ٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٤.

وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾[1].

قال لهم النبي في ذلك الموقف: «لا أجد ما أحملكم عليه» فهذا حديث مرتبط بظروفه المكانية والزمانية شأن ما سبق في غزوة بدر.

* وفي قضية زواج زيد وتطليقه زوجته التي أصبحت زوجة للنبي عليه السلام يقول تعالى ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾[2].

أمر الله تعالى النبي أن يجعل زيداً يطلق زوجته ثم يتزوجها النبي فيما بعد لكي يقضي النبي عملياً على عادة الجاهلية في اعتبار زوجة الابن بالتبني وطليقته مثل زوجة الابن الحقيقي، وحتى لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً.

وكان ينبغي على النبي أن «يقول» لزيد «طلق زوجتك» ولكنه تحرج وقال العكس تماماً فنزل القرآن يؤنب النبي ويحكي القول الذي قاله واستحق بسببه التأنيب من ربه ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ..﴾

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٩١، ٩٢.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٧.

إذن هنا حديث للنبي هو ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ قاله النبي لزيد بن حارثة، وذلك الحديث أيضاً مرتبط بظروفه الزمانية والمكانية، ولكنه حين قاله النبي لم يحالفه التوفيق فيه. والمراد أنه كان للنبي في تحركاته وعلاقاته المتعددة أقوال وأحاديث، وهذه الأحاديث كانت مرتبطة بظروفها الزمانية والمكانية التي قيلت فيها والتي يستحيل أن تتكرر في أي عصر لاحق بنفس الأحداث والأشخاص والظروف، لأنه تاريخ مضى وانتهى بانتهاء أبطاله وموتهم ولم يبق منه إلا العبرة والعظة.

وسيرة النبي فيها الكثير من الأحداث والأقوال المنسوبة للنبي في الفترة المكية وفي الفترة المدنية، وهي تاريخ يجوز عليه الصدق والكذب وليس داخلاً في دين الله تعالى بأي حال. أما ما أورده القرآن من قصص يخص النبي محمد فهو القصص الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. والإيمان بهذا القصص يدخل في إطار الإيمان بالقرآن.

* إن أقوال (النبي) خارج الوحي القرآني والتي أوردها القرآن هي قصص للعبرة نؤمن بها ضمن إيماننا بكل حرف نزل في القرآن.

* وأقوال (النبي) خارج الوحي القرآني والتي كتبها الرواة في السيرة بعد وفاة النبي هي تاريخ فيه الحق والباطل والصحيح والزائف وليست جزءاً من الدين على الإطلاق.

* أما أقوال (الرسول) فهي الرسالة أو القرآن أو دين الله، وقد أبلغه الرسول دون زيادة ولا نقصان، وفيه الكفاية وفيه التفصيل

وفيه البيان، وكان (النبي) أول الناس طاعة لهذا الوحي وعملاً بما جاء فيه. وهذه هي العظمة الانسانية الحقيقية لمحمد النبي البشري عليه السلام.

ما على الرسول إلا البلاغ:

هذه الجملة القرآنية أصبحت مثلاً يقال على اللسان، هذا مع أننا قليلاً ما نتفكر فيها فيما يخص ديننا. فالنسق القرآني هنا يأتي بأسلوب القصر والحصر الذي يحصر مهمة الرسول في إبلاغ الرسالة فحسب ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[1] ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾[2] ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[3] ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[4].

وتبليغ الرسالة معناه توصيلها كما هي دون زيادة أو نقص ويؤكد ذلك أن أسلوب القصر والحصر في ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ يؤكد أكثر من مرة أن مسؤولية الرسول هي تبليغ الرسالة بحذافيرها كما هي.

والبلاغ أو توصيل القرآن للناس يغني أن يعرف الناس ما في القرآن من تبشير وإنذار وهداية ونور ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾[5] وأوصاف الشاهد والمبشر والنذير والداعي

---

(١) سورة المائدة، الآية ٩٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٩٢.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٤٨.

(٥) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

كلها تندرج تحت مفهوم التبليغ. والرسول إذا بلغ الرسالة أصبح شاهداً على قومه.

«وشهد على» عكس «شهد لـ» فإذا «شهدت على فلان» أي كنت خصماً له أما إذا «شهدت لفلان» فقد صرت مدافعاً عنه شفيعاً له.

والنسق القرآني يجعل من الرسول يوم القيامة «شاهداً على» قومه أي خصماً لمن عصى منهم واقرأ في ذلك الآيات الكريمات الآتية: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾[1] ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾[2] ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[3].

وقد جاءت شهادة الرسول على قومه يوم القيامة في قوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾[4] فمسؤوليته أن يبلغ الناس القرآن وحين هجروا القرآن وتمسكوا بكتب أخرى معه استحقوا أن يتبرأ منهم الرسول يوم القيامة.

ومن معالم هجرهم للقرآن اتهامهم له بأنه ليس مبيناً يحتاج

---

(١) سورة المزمل، الآية: ١٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤١.

(٣) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٣٠.

إلى كلام البشر لشرحه وتوضيحه، وأنه فرط في التبيين وما جاء تبياناً لكل شيء مستحق للتبيين. من هنا ستكون شهادة الرسول يوم القيامة شهادة خصومة تؤكد أن القرآن نزل تبياناً لكل شيء: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[1].

وبعض آيات التبليغ كانت تقصر مهمة التبليغ والإنذار على الرسول وتجعل مهمة الحساب على الله يوم القيامة ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[2] ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾[3] ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[4].

وقد أدى رسول الله مهمته والقرآن معنا نقرؤه، ولكن لا نتدبره، وأكثرنا يهجره.. نرجو من الله تعالى لنا الهداية.

الرسول كان يحكم بالقرآن وحده:

كان النبي حاكماً مسؤولاً عن دولة، وكان قائداً للأمة، وكانوا يحتكمون إليه في أمورهم وقضاياهم، وكان يحكم بينهم بصفته الرسول الذي ينطق بحكم الله كما هو.

والقاعدة القرآنية أن الحكم لله في أمور النزاع والاختلاف وينبغي على كل فريق أن يرضى بحكم الله.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٤٨.

(٤) سورة الغاشية، الآيات: ٢١ ـ ٢٦.

يقول تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ ثم يقول تعالى ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1].

ويقول تعالى ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ﴾[2].

فالحكم إلى الله في كتابه الذي نزل مفصلاً، والذي كان ينطق بهذا الكتاب ويبلغه للناس كان رسول الله عليه السلام، لذا تقول آية أخرى تفصل في القول ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[3].

وحتى لا يقول قائل إن الرسول محمد عليه السلام قد مات وترك لنا غير القرآن كلاماً نحتكم إليه فإن القرآن الكريم أوضح لنا أن الرسول كان في حكمه ينطق بالقرآن وحده. وبعد موت النبي وغيابه عنا فإن القرآن لا يزال بيننا لمن أراد الهدى والاحتكام إليه، وهذا ما نفهمه من موقف المنافقين من الرسول عليه السلام، المنافقون كانوا يحتكمون للرسول إذا كان الحق في جانبهم، أما إذا لم يكن الحق معهم أعرضوا عن حكم الرسول مع أنهم يدعون أنهم مسلمون ينبغي أن يدينوا بالولاء لله ورسوله. ويفصل القرآن موقفهم هذا فيقول ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى

(١) سورة الشورى، الآية: ١٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٤.
(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.

ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾[1].

ويقول تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾﴾[2].

وقد كانوا يصدون لأن الرسول يحكم بينهم بما أنزل الله فقط، فقوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ لا تفيد وجود مصدر آخر مع ما أنزل الله، لأن الرسول هو الذي ينطق بما أنزل الله وهو الذي يحكم بما أنزل الله.

ويؤكد ذلك آيات سورة النور ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ..﴾[3] فلو كان الرسول شيئاً آخر منفصلاً عن كلام الله لجاء الفعل مثنى ولقال تعالى «وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكما بينهم» ولقال «إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكما بينهم..»

ولكن لأن الله هو الحكم وحده ولأن الرسول هو الذي ينطق بكلام الله وحده جاء الفعل مفرداً يعود الضمير فيه على

---

(١) سورة النور، الآيات: ٤٧ ـ ٤٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦١.

(٣) سورة النور، الآيات: ٤٨ ـ ٥١.

واحد لا إله إلا هو فقال تعالى ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾. وصدق الله العظيم ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾[1].

والنبي ـ غير الرسول كما عرفنا ـ وباعتبار النبي بشراً فقد استطاع بعض المنافقين أن يخدعه. حدث ذلك حين سرق أحدهم درعاً وشاع بين الناس أمره وأحس أهل اللص بالعار مما ارتكبه ابنهم فتآمروا بالليل على أن يضعوا الدرع المسروق في بيت شخص يهودي بريء وفي الصباح جاءوا للنبي يبرئون ساحة ابنهم المظلوم.. وانخدع النبي وصدقهم ودافع عن ابنهم، وبذلك أصبح اللص بريئاً، وأصبح البريء لصاً.. وهي قصة تتكرر في كل زمان ومكان، موجزها أن ينجو المجرم صاحب النفوذ وأن يدخل البريء السجن ظلماً. والقرآن الكريم ذكر القصة وحولها من حادثة تاريخية محددة بالزمان والمكان والأشخاص إلى قضية إنسانية عامة تتكرر في كل عصر. وفي البداية عاتب الله تعالى النبي ووجه نظره إلى أن يحكم بالكتاب وحذره من أن يكون مدافعاً عن الخائنين ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ أي أنزل الكتاب الحق ليحكم بين الناس بما أراه الله في ذلك الكتاب، فالاحتكام للكتاب. ولأنه نسي فقد جاء الأمر بالاستغفار ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ ثم جاءه النهى عن الدفاع عن أولئك الخونة الذين تآمروا لتبرئة المجرم واتهام البريء ﴿وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ

(١) سورة النحل، الآيتان: ٥١، ٥٢.

يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾.

ثم يقول تعالى ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾ يعني هل يستطيع أحد أن يدافع عنهم يوم القيامة أو أن يشفع فيهم؟ ثم جاءت الآيات التالية تضع قواعد المسؤولية الفردية ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي كل إنسان مسؤول عن سيئاته، وإذا استغفر غفر الله له وإلا فهو مؤاخذ بما كسبت يداه ولن يجادل عنه أحد أو يشفع فيه يوم القيامة ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[1].

ثم يقول تعالى للنبي ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾[2] أي حاولوا خداع النبي ولكن نزل الوحي

(١) سورة غافر، الآية: ١٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٣.

ففضحهم وأعاد الأمور إلى نصابها العادل، وعلى هذا كانت أقضية الرسول تسير وفق القرآن لأنه كان يحكم بالقرآن وينطق بالقرآن ولا شيء غير القرآن.

أطيعوا الله وأطيعوا الرسول:

يقول تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾[1] ويقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2] فهل الطاعة في الدين لواحد أو لاثنين أو لثلاثة؟ المطاع واحد هو الله في أوامره التي ينطق بها الرسول أو من يقوم بالأمر بعد موت النبي. والقاعدة الشرعية المأخوذة من القرآن أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وقد كانت طاعة النبي - وهو في حياته - في إطار طاعة الله فقط، نفهم هذا من قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾[3].

والشاهد في الآية الكريمة هو قوله تعالى «يا أيها النبي» فلو قال «يا أيها الرسول» لكانت طاعته مطلقة لأنها طاعة للرسالة أي كلام الله. ولكنه لأنه تعالى خاطبه بوصفه النبي فقد جعل طاعته مقيدة بالمعروف فقال ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.
(٣) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.

فالطاعة للرسول هي طاعة لله صاحب الوحي، والنبي أول الناس طاعة للرسالة، وكذلك أولو الأمر ينبغي أن يكونوا أولى الناس بطاعة الله والا لا طاعة لهم في معصية الخالق جل وعلا..

ويقول تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1] ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[2] ولذلك فإن كل نبي كان يأتي لقومه برسالة كان يخاطبهم بوصف الرسول ويطلب منهم أن يطيعوه على أساس هذه الرسالة ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[3] ولم يقل لهم «إني لكم نبي أمين..».

ومع أن القرآن حثّ على الإحسان بالوالدين إلا أنه أوجب أن تكون الطاعة لله إذا حاول الوالدان إضلال الأولاد ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾[4].

إن طاعة الرسول هي طاعة القرآن الذي أنزله الله على الرسول، ولا يزال الرسول أو القرآن بيننا.

واتبعوا النور الذي أنزل معه:

الإيمان ليس بشخص محمد عليه السلام وإنما الإيمان بما نزل على محمد ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾[5].

(١) سورة النساء، الآية ٦٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٠.
(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ١٠٧، ١٠٨.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٨.
(٥) سورة محمد ٢.

ونحن لا نتبع محمداً عليه السلام كشخص وإنما نتبع النور الذي أنزل معه أي القرآن فهذا ما جاء في كلام الله ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١).

كان النسق اللغوي يقتضي أن يقال «فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوه..» ولكن الاتباع ليس للشخص الآدمي وإنما للوحي الإلهي.

ومحمد عليه السلام هو أول الناس تمسكاً بالوحي واتباعاً للهدى، وبهذا أمره تعالى فقال ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾(٢) ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ﴾(٣) ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾(٤) ﴿فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾(٥) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾(٦).

وأمره ربه أن يعلن أنه يتبع الوحي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾(٧).

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾(٨).

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٦.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٠٩.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢.
(٥) سورة القيامة، الآية: ١٨.
(٦) سورة الجاثية، الآية: ١٨.
(٧) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.
(٨) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٣.

وإذا كان النبي متبعاً للوحي فنحن أولى الناس بعده باتباع الوحي. يقول تعالى يخاطبنا ويخاطب النبي ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

وهذه الآيات الكريمة هي بداية سورة الأعراف وفيها ينهى الله تعالى النبي عن التحرج من تبليغ القرآن وأن ينذر به. وهو تعليم لنا نحن المؤمنين وذكرى ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾. ثم جاءت لنا نحن المؤمنين أوامر محددة بالاتباع للقرآن فقط: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ونهي واضح محدد عن اتباع غير القرآن: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ فالقضية واضحة لا تقبل الجدل، وهي اتباع القرآن دون غيره.

ويأتي السؤال التقليدي: إذن فأين الاتباع للنبي؟ والجواب الوحيد: إنه الاتباع للقرآن الذي يتبعه النبي، أو هو اتباع الرسول أي الرسالة أي القرآن.

وقوله تعالى ينهانا ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ فيه إعجاز خفي، فاتخاذ مصادر أخرى من القرآن والانحياز لمن كتبها وألفها معناه وضعهم في موضع المقارنة بالله تعالى وكتابه في نفس المستوى أو أقل قليلاً، وذلك وقوع في اتخاذ أولياء مع الله، مع أن المؤمن يكتفي بالله ولياً وبالقرآن كتاباً.

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٢، ٣.

وقوله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ يضع حقيقة إنسانية ثابتة وهي أن أكثر البشر تتبع الأهواء والضلالات ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾[1].

ولكن هذه الكثرة العددية التي تتبع الظن والهوى ينبغي ألا تكون حجة على الحق القرآني ..﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ﴾[2].

ومن عادات البشر السيئة أنهم قليلاً ما يتذكرون ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ﴾[3].

هل للنبي أن يجتهد في التشريع!

ليس للنبي أن يجتهد في التشريع أو أن يعلم الغيب:

المؤمن بالقرآن عليه أن يؤمن بأن الأنبياء هم أصلح البشر لتحمل مسؤولية الرسالة وإلا لما اختارهم الله ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾[4] على أن مسؤولية الرسالة تنحصر في النهاية في التبليغ فقط ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾[5].

ومن اقتصار مهمة النبي على التبليغ للرسالة كما هي دون زيادة أو نقصان يمكن أن نستنتج أن تدبر الكتاب والاجتهاد في فهم معانيه هو مسؤولية الناس بعد أن أوصل لهم النبي الرسالة،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٠٠.

(٣) سورة ص، الآية: ٢٤.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٩٩.

وهذا الاستنتاج العقلي قد أثبته القرآن قبلنا، فالله تعالى يقول ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾(١) فالنسق اللغوي في الآية كان يقتضي أن يقال للنبي: كتاب أنزلناه إليك مبارك لتتدبر آياته، ولكن التدبر في الكتاب مسؤولية الناس كما أن التبليغ مسؤولية الرسول.

ويؤكد القرآن على مسؤوليتنا نحن في التدبر في الكتاب، فيقول تعالى بتعبير الاستفهام الإنكاري ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾(٢) ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾(٣).

ويوم القيامة سيكون ندمهم شديداً لأنهم لم يتدبروا القرآن، فسيقال لهم ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾(٤).

ووصف الله تعالى القرآن بأنه بصائر للناس، أي دعوة لهم لأن يتبصروه وأوضح لهم أنه لا شأن للنبي بهم بعد أن أدى مهمته في التبليغ، نفهم هذا من قوله تعالى ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾(٥).

ويقول تعالى للنبي ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا

(١) سورة ص، الآية: ٢٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٣) سورة محمد، الآية: ٢٤.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٦٨.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٠٤.

اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[1] فلابد من الإنصات للقرآن حتى نتبصره ونتدبر آياته.

والذي لا شك فيه أن النبي عليه السلام بعقليته كان أصلح الناس للاجتهاد، وكان منتظراً أن يبادر بالإجابة على من يسأله ويستفتيه في أمور الدين، ولكن الواقع القرآني يؤكد أن النبي كان إذا سئل في شيء كان ينتظر نزول الوحي ليأتي بالإجابة، وينزل قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ﴾ كذا ﴿قُلْ﴾ كذا..

وكلمتا ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ و﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ مع كلمة ﴿قُلْ﴾ من كلمات الله في القرآن الكريم، ومنها نتأكد أن النبي كان مطلوباً منه فقط أن يبلغ الرسالة كما هي، لقد كانوا يستفتون النبي ولكن النبي كان ينتظر نزول الوحي، وتنزل الفتوى من رب العزة ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾[2] لم يقل له ويستفتونك قل إني أفتيكم. وإنما قال ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ وفي المواريث استفتوا النبي في الكلالة فانتظر الفتوى من الله تعالى فنزل قوله تعالى ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ..﴾[3] لم يقل أنا أفتيكم.

ومن مراجعة كلمة «يسألونك» في القرآن نتعرف على الحقائق الآتية:

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٢٠٣، ٢٠٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٧٦.

* كانوا يسألون النبي عن أشياء جديدة في التشريع، وكان النبي ينتظر معهم الحكم التشريعي الجديد الذي ينزل به القرآن، مثال ذلك سؤالهم عن الأنفال أو الغنائم ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ.... ﴾[1].

* وكانوا يسألون النبي عن إيضاحات جديدة في أمور تحدث عنها القرآن من قبل، وكان بإمكان النبي أن يجيب عنها بالاستنتاج والقياس، ولكنه عليه السلام لم يفعل، فقد نزل قوله تعالى في مكة ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[2] فالإثم كان محرماً في مكة، ثم سئل النبي في المدينة عن حكم الخمر ومعلوم أنها من الآثام، ولم يجتهد النبي في التوضيح والقياس والاستنتاج، وهو بلا شك أقدر الناس عليه، ولكنه انتظر حتى جاءت الإجابة من الله تعالى ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[3] وطالما أن في الخمر إثماً كبيراً فإن تحريمها قد نزل إجمالاً في مكة ثم جاء تفصيلاً في المدينة.

* بل كانوا يسألون النبي عن أمور تكرر حديث القرآن عنها، ومع ذلك فالنبي كان لا يتلو عليهم الإجابة من الآيات التي نزلت من قبل، وإنما كان ينتظر نزول الوحي فينزل بإجابات تؤكد ما سبق بيانه، فقد نزلت آيات مكية تحض على رعاية اليتيم، ومنها ﴿فَأَمَّا

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٣٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾﴾[1] ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾[2] ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾[3] ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾[4] ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾[5].

زثم نزلت آيات في المدينة تؤكد على رعاية اليتيم منها ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾[6] ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ..﴾[7].

ومع ذلك سألوا النبي عن اليتامى، وانتظر النبي الإجابة ولم يقرأ عليهم الآيات الكثيرة عن رعاية اليتيم وحقوقه، ونزل قوله تعالى يجيب السؤال ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ﴾[8] وهذه الإجابة تؤكد ما سبق بيانه من رعاية اليتيم. وسئل النبي مرة أخرى عن يتامى النساء ونزل الوحي يؤكد ما سبق بيانه من وجوب رعايتهن ورعاية اليتيم ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن

(١) سورة الضحى، الآية: ٩.

(٢) سورة الماعون، الآيتان: ١، ٢.

(٣) سورة الفجر، الآية: ١٧.

(٤) سورة البلد، الآية: ١٥.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢، وسورة الإسراء، الآية: ٣٤.

(٦) سورة الإنسان، الآية: ٨.

(٧) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٢٠.

تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾(١) والإجابة هنا تشير إلى ما نزل في الكتاب وكانوا يتلونه ويقرأونه من رعاية اليتامى والمستضعفين من الولدان.

* وأكثر من ذلك فهناك حقيقة قرآنية مؤكدة وكررها القرآن، وهي أن النبي لا يعلم الغيب ولا يعلم موعد قيام الساعة ولا ما سيحدث له أو للناس. واقرأ في ذلك قوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾(٢) ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ..﴾(٣) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾(٤) وهل هناك أوضح من قوله تعالى ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ..﴾(٥).

ومع ذلك فهناك آيات أخرى كثيرة تؤكد أن علم الساعة عند الله وحده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾(٦) ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾(٧) ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.
(٣) سورة الجن، الآيات: ٢٥ - ٢٧.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٩.
(٥) سورة الأحقاف، الآية: ٩.
(٦) سورة لقمان، الآية: ٣٤.
(٧) سورة فصلت، الآية: ٤٧.

لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾[1].

كلها آيات تؤكد أن النبي لا يعلم الغيب وأن علم الساعة لله وحده وكانت تكفي آية واحدة ولكنهم سألوا النبي مرة ومرات عن الساعة، ومع ذلك لم يبادر بالإجابة بأن يقرأ عليهم الآيات السابقة، وإنما انتظر الوحي، وكان الوحي ينزل دائماً بنفس الإجابة وهي أن علم الساعة لله وحده وأن النبي لا يعلم الغيب.

سألوا النبي عن الساعة فلم يبادر بالإجابة وهو بلا شك يعلم أن القرآن لا يمكن أن يأتي بإجابة تناقض ما سبق، وأن الإجابة ستكون نفس المعنى الذي تكرر وتأكد من قبل.. انتظر النبي الإجابة ونزل قوله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2] وهذا توضيح فيه أكثر من الكفاية.

ولكنهم سألوه أيضاً عن الساعة ونرى النبي عليه السلام أيضاً ينتظر الإجابة فنزل قوله تعالى يجيب ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٥.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٨٧، ١٨٨.

مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾[1] والآيات الأخيرة ملئت بأسلوب الاستفهام الإنكاري ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾ وجاء أسلوب القصر يقصر علم الساعة على رب العزة ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ ويقصر وظيفة النبي على الإنذار ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾.

كان ذلك في مكة ثم في المدينة سألوا النبي عن الساعة، وانتظر النبي أيضاً نفس الجواب من رب العزة ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[2].

كان بإمكان النبي أن يجيب، ولديه الكفاية من الآيات، ولكنه كان ينتظر الإجابة، وينزل الوحي بالإجابة المعروفة سلفاً، ثم يسألون النبي نفس السؤال وينتظر النبي إلى أن تأتي الإجابة.. وتأتي نفس الإجابة ثم يسأله آخرون نفس السؤال، وأيضاً ينتظر الإجابة التي يعرفها إلى أن ينزل الوحي.. وهكذا.. ولو كان من حقه الاجتهاد لأجاب منذ السؤال الأول.

على أن هذه التأكيدات القرآنية لم تأت عبثاً ـ وتعالى الله عن العبث ـ فمع كل التأكيدات التي كانت تكرر وتكرر وتؤكد أن النبي لا يعلم الغيب ولا يعلم شيئاً عن الساعة وموعدها وأحداثها ـ مع ذلك فإن الناس أسندوا للنبي بعد موته عشرات الأحاديث عن علامات الساعة وأحداثها والشفاعات وأحوال أهل الجنة وأهل النار. وهذه الأحاديث التي ملأت الكتب (الصحاح)

---

(١) سورة النازعات، الآيات: ٤٢ ـ ٤٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦٣.

تؤكد إعجاز القرآن لأننا نفهم الآن لماذا كرر القرآن تلك التأكيدات سلفاً ومسبقاً ليرد عليها سلفاً ومسبقاً. هذه الأحاديث الضالة تضعنا في موقف اختبار أمام الله تعالى فإما أن نصدق القرآن ونكذبها، وإما أن نصدقها ونكذب الله وقرآنه.. ولا مجال للتوسط.. ونسأل الله السلامة والهداية.. ونعود إلى قضية التشريع..

* فقد كانوا يسألون النبي عن أشياء لا نشك لحظة في أنه عليه السلام كان يعرف الإجابة عنها من خارج القرآن، ومع ذلك فلم يبادر النبي بالإجابة من عنده أو من معلوماته وإنما انتظر الوحي القرآني. فقد سألوا النبي عن الأهلة ـ جمع هلال ـ ومعروف أن الأهلة هي لمعرفة المواقيت، وهذا ما كان مشهوراً العلم به في الجزيرة العربية حيث اعتاد العرب في شهورهم العربية على الاعتماد على التوقيت القمري، وبه كانوا يؤدون فريضة الحج قبل القرآن وفي عصر النبي عليه السلام. وهكذا فعندما سألوا النبي عن الأهلة كان ممكناً أن يجيبهم من عنده ولكنه انتظر حتى نزل قوله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[1]. وسألوا النبي عن مباشرة النساء في المحيض، ونحن نعتقد أن النبي بذوقه الرفيع وحسه المرهف ـ عليه السلام ـ كان يعلم أن المحيض أذى وأنه ينبغي اجتناب النساء في المحيض، ومع ذلك فلم يصرح النبي برأيه وانتظر الوحي حتى نزل قوله تعالى ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ﴾[2].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

* وحدث أن جاءت امرأة تسأل النبي عن حكم الظهار بعد أن ظاهر منها زوجها أي أقسم باجتنابها جنسياً أو بحرمتها مثل تحريم أمه عليه، ولم تكن لدى النبي إجابة فانتظر كعادته الوحي، ولكن المرأة لم تنتظر وأخذت تجادل النبي ـ وهذا منتظر ممن كانت في مثل حالتها ـ ولما لم تجد لدى النبي شيئاً رفعت يديها للسماء تشكو لله تعالى حالها، ونزل القرآن يوضح ذلك الموقف ويفتي في الموضوع ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾[1].

إن صاحب الشرع هو رب العزة تعالى، أما الرسول فهو الذي يبلغ ذلك الوحي كما هو.. ولو كان للنبي حق الشرح والاجتهاد، لأصبح للدين مصدران، وكان لابد حينئذ أن يحظى ذلك المصدر الثاني بحفظ الله شأنه شأن المصدر الأول، ولكن ذلك لم يحدث لأنه ومنذ البداية فإن التبليغ هو مسؤولية الرسول، وليس الاجتهاد من مسؤولياته..

ونضيف إلى ذلك أنه طالما كان الوحي ينزل والشرع لما يكتمل بعد فلم يكن هناك مجال للاجتهاد في التشريع، وحين اكتمل الوحي نزولاً وتم الدين قرآناً انتهى دور النبي ومات بعد أن أدى الأمانة وبلّغ الرسالة.

ولو كان النبي يجتهد ويتحدث في الدين برأيه وأنشأ مصدراً آخر مع القرآن من خلال اجتهاده ـ لو حدث هذا ما كان لدى الصحابة والتابعين والأئمة مجال للاجتهاد بعد اجتهاد النبي أو

(١) سورة المجادلة، الآية: ١.

تفسيره للقرآن. ولكن الذي حدث أن الصحابة والتابعين والأئمة قد اجتهدوا في التفسير والإفتاء والتشريع، ثم جاء اللاحقون فأسندوا بعض الاجتهاد الذي قالوه للنبي ليجعلوا له قدسية وليضمنوا انتشاره، ولم يفطنوا إلى أن ذلك يناقض القرآن. وبذلك نشأ ما يعرف بالمصادر الأخرى إلى جانب كتاب الله...

اجتهاد النبي في التطبيق وليس في التشريع

لم يكن للنبي أن يجتهد في التشريع..

ولكن كان عليه أن يجتهد في طاعة الله وتطبيق أوامره وتنفيذ شريعته، وحتى في ذلك أمره الله أن يشاور المؤمنين في الأمر.ولكن هل يصلح اجتهاده في التطبيق لمن جاء بعده من المؤمنين؟ إن المفهوم أن اجتهاده في التطبيق للنصوص الشرعية يخضع لإمكاناته البشرية وظروف الزمان والمكان ومن حوله من البشر، وهي مختلفة بالتأكيد عن ظروفنا وبالتالي فليس اجتهاده التطبيقي في عصره ولعصره ملزماً لنا ولكل من جاء بعده.

مثلاً يقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[1] كان اجتهاد النبي في التسليح والاستعداد العسكري طبقاً للآية الكريمة محكوماً بظروف عصره، فهل نتمسك بذلك في عصرنا؟ أم نجتهد بما يناسب عصرنا؟.

اجتهادنا في فهم القرآن فريضة دينية اسمها التدبر

إذا تدبرنا القرآن طلباً للهداية وبمنهج علمي وبدون هوى

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

مسبق أفلحنا، وهذا ينسب لنا وليس لدين الله تعالى. أما إذا اجتهدنا في الدين فأخطأنا في الاجتهاد فالخطأ يلحق بنا نحن ولا شأن للدين بنا.. وكلنا بشر يجوز علينا الخطأ، لذا كان لابد لدين الله أن يكون بمعزل ومنجاة من أخطاء البشر وليظل سامياً فوق الهوى البشري وقد ضمن الله تعالى حفظه إلى قيام الساعة ليكون حجة على اجتهادهم الخاطىء و افترائهم على الله تعالى ورسوله.

ولأنه محفوظ بقدرة الله تعالى فلم يستطيعوا النيل من لفظه ونصه فكذبوا على الله تعالى ورسوله في التفاسير والأحاديث. وتخيل لو لم يحفظ الله تعالى قرآنه من أهوائهم؟ اذن كانت رقابة الشيوخ قد حذفت من القرآن كل الآيات التي تنفي عصمة النبي وشفاعته وعلمه بالغيب والآيات الأخرى التي تؤكد على القيم الإسلامية العليا من الحرية المطلقة في العقيدة والفكر والحق المطلق في العدل وفرضية الشورى بمعنى الديمقراطية المباشرة، وكل تلك الحقائق القرآنية المنسية الغائبة والتي اجتهدنا في توضيحها فثار علينا الشيوخ ولا يزالون مع أن كل أدلتنا من القرآن. لو استطاعوا لأعلنوا كفرهم به. لم يبق في استطاعتهم إلا اضطهادي وسبي وشتمي ليداروا عورة جهلهم وكراهيتهم لما أنزل الله تعالى ذلك القرآن الذي أنزله الله تعالى لنا دينا نقياً صافياً محفوظاً بقدرته جل وعلا حتى تتم علينا حجة الله يوم القيامة.

حدود اجتهاد الناس في تشريع القرآن:

كلمة الاجتهاد بمعناها الاصطلاحي من مبتكرات العصر العباسي ونحن مضطرون لاستعمالها لشيوعها على الألسنة،

والاصطلاح القرآني المماثل هو «التدبر» ومعناه أن يظل القارئ للقرآن خلف الآية يتتبعها في القرآن حتى يستوعب المراد، لأن القرآن مثاني وفيه التشابه وتكرار المعنى وتفصيلها، وآياته تفسر بعضها بعضاً ولا يناقض بعضها بعضاً، لذا فإن الأمر بتدبر القرآن يشير إلى هذه الحقيقة فيقول تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[1].

والتدبر عملية عقلية فكرية يقوم بها القارئ للقرآن متشجعاً بآياته التي تحث على التفكر والتعقل والنظر والعلم والتفقه.

على أن القرآن استعمل بعض المشتقات القريبة من كلمة «الاجتهاد» مثل ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾[2] والجهد هنا يعنى الإمكانات المالية والمادية، وقريب منه قوله تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾[3] وقد يكون الجهد مجهوداً عضلياً أما التدبر فهو تفكير عقلي علمي بحت، وذلك يجعل من أسلوب القرآن أرقى وأدق من اختراع العصر العباسي: «الاجتهاد» ـ الذي لا يزال مسيطراً على تفكيرنا حتى الآن.

والسؤال الآن: ما هي حدود الاجتهاد في شرع الله؟ ومتى يكون مباحاً ومتى يكون محظوراً؟ إن الله تعالى يقول ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[4] ومع نبرة الهجوم والتخويف في الآية من ذلك التشريع الذي لم يأذن به

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٩.

(٣) سورة النور، الآية: ٥٣.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٢١.

الله فإن في الآية تصريحاً بوجود تشريع يرضى عنه الله لأنه جاء في الحدود التي يأذن بها الله. وللأسف فإنهم لم يعرفوا تلك الحدود فاجتهدوا في المحظور وربما توقفوا حيث ينبغي الاجتهاد، ولقد قالوا إنه «لا اجتهاد مع وجود نص» مع أن النص القرآني يحتاج ـ كأي نص تشريعي ـ إلى اجتهاد في تطبيقه على الواقع. إنهم أضافوا نصوصاً منسوبة للنبي وجعلوها ـ مع أخرى ـ مصادر أخرى للإسلام مع القرآن. وأصبحت تلك النصوص موانع للاجتهاد لا وجود له معها بما جعلوا لها من قدسية مع أنها تخالف القرآن. ونضرب لذلك مثلاً:

فالمحرمات في الزواج جاءت في نص قرآني جامع مانع في قوله تعالى ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ﴾(١).

فالمحرمات هنا بالنص القرآني كالآتي «الأم» «البنت»

(١) سورة النساء، الآيات: ٢٢ ـ ٢٤.

«الأخت» «العمة» «الخالة» «بنت الأخ» «بنت الأخت» «الأم من الرضاعة» «الأخت من الرضاعة» «أم الزوجة» «بنت الزوجة التي دخل بها زوجها» «زوجة الابن من الصلب» «أخت الزوجة في وجود الزوجة على ذمة زوجها وفي عصمته» ثم «المرأة المتزوجة بزوج آخر إلا إذا فسخ عقد زواجها بملك اليمين» فهنا خمس عشرة امرأة محرمة في الزواج عندما نضيف «زوجة الأب».

وقد حرص القرآن الكريم على توضيح التفصيلات والاستثناءات والمحترزات لتتضح الصورة كاملة، فأجاز على سبيل الاستثناء أنواع الزواج الباطل الذي كان موجوداً قبل نزول الآية وأقره بصفة مؤقتة ولكن حرم أن ينشأ بعد تلك الحالات الموجودة حالات أخرى، ففي تحريم زواج أرملة الأب أو طليقة الأب قال تعالى ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وفي تحريم الجمع بين الأختين في الزواج قال تعالى ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ومع أنها كانت حالات فردية معدودة وقت نزول القرآن إلا أن القرآن الكريم الذي فصل كل شيء تفصيلاً والذي نزل تبياناً لكل شيء أفسح لها مجالاً للتوضيح طالما يستدعي الأمر ذلك.

وأوضح القرآن بأفصح بيان معنى البنت الربيبة بالتفصيل ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

وأوضح معنى زوجة الابن المحرمة ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ أي لابد أن يكون الابن من صلب أبيه وليس ابناً بالتبني ولذلك أمر الله تعالى أن يطلق زيد بن حارثة ـ

الذي تبناه النبي ـ زوجته زينب بنت جحش ليتزوجها النبي فيما بعد.

وأوضح حرمة الزواج من المرأة المتزوجة التي لا تزال في عصمة زوجها إلا إذا فقدت حريتها وأصبحت مملوكة وحينئذ ينفسخ عقد زواجها وبعد انتهاء عدتها يمكن لها الزواج ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

وبعد أن حصر القرآن المحرمات وفصّل القول فيهن تفصيلاً قال تعالى ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي إن تحريم هؤلاء النسوة مكتوب ومفروض عليكم، فهنا حكم جامع مفصل بالتحريم، وبعده قال تعالى ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أي إنه من بعد المحرمات المنصوص عليهن في الآيات الثلاث فكل النساء أمامكم حلال للزواج الشرعي ولسن محرمات بأي حال.

ومعناه أن القرآن الكريم أحاط النساء المحرمات بسور تشريعي جامع مانع، وما بعد ذلك السور فكل النساء حلال للزواج.

وبمعنى أدق فلا يجوز هنا أن نجتهد إلا في تطبيق هذا النص كما هو خصوصاً وهو نص تشريعي جامع مانع لا يجوز الإضافة له أو الحذف منه حتى لا نعتدي على تشريع الله، ولكن الفقهاء أعملوا القياس فحرموا الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها قياساً على حرمة الجمع بين المرأة وأختها، وحرموا الخالة والعمة من الرضاع قياساً على تحريم الأم من الرضاع والأخت من الرضاع، ثم صاغوا في ذلك أحاديث هي أشبه بمتون الفقه وأحكام

الفقهاء فقالوا «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» وقالوا «لا يجمع الرجل بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها».

وهنا يقع التناقض مع كتاب الله..

فإذا أراد رجل أن يتزوج عمة زوجته أجاز له القرآن ذلك لأن عمة الزوجة ليست من المحرمات في نص القرآن ولأنها تدخل في الحلال من النساء للزواج ضمن قوله تعالى ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ ولكن كتب الفقه تجعل ذلك الحلال القرآني حراماً.

وإذا أراد رجل أن يتزوج خالته من الرضاع أحلها له القرآن وحرمها عليه الفقه..!! وذلك يعني بوضوح أنهم يحرمون ما أحل الله وينسبون ذلك للرسول، والرسول عليه السلام بريء من ذلك..

إن النساء كلهن حلال للزواج ما عدا المنصوص عليهن بالتحديد والتعريف الدقيق، ولكنهم لم يكتفوا بذلك التحديد الجامع المانع فأضافوا محرمات أخريات وضربوا بقوله تعالى ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ عرض الحائط. وقالوا لنا «لا اجتهاد مع وجود نص» واخترعوا نصوصاً أكسبوها قدسية مع أنها تعارض كتاب الله ومنعونا من مناقشتها..

وذلك مجرد مثل للاجتهاد المحظور الذي وقع فيه السابقون وأكسبوه قدسية، وهناك أمثلة أخرى لذلك الاجتهاد في المحظور الذي يعتدي على النصوص القرآنية الجامعة المانعة، ولكن الإسهاب في ذلك يخرج عن موضوع هذا الكتاب.

كان ينبغي أن يتوجه اهتمام الفقهاء إلى الاجتهاد في المناطق المباح فيها الاجتهاد. فمن الملاحظ أن آيات التشريع

القرآني محدودة ومحددة فهي أقل من مائتي آية أي ما يعادل حوالي ١/٣٠ من القرآن الكريم، ومع ذلك فقد اكتفى رب العزة بهذه الآيات. وبها اكتمل الدين وتمت نعمة الإسلام بتمام القرآن ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1] وليس ممكناً بعد هذه الآية أن يقال إن كتب الفقه والحديث تكمل نقصاً في القرآن، فتعالى الله العزيز الحكيم أن ينزل لنا كتاباً ناقصاً يحتاج للبشر في استكماله. وآيات التشريع القرآني على قلتها ومحدوديتها تعني أن تشريع القرآن ترك هامشاً للحركة الإنسانية في الاجتهاد والتطور وفق المتغيرات ولكن ينبغي أن يكون ذلك في الإطار العام لتشريعات القرآن التي تهدف لإقرار العدل والمساواة والقسط والتيسير وحفظ الحقوق والدماء. إن التشريع القرآني جاء بنصوص جامعة مانعة في أمور محددة كالمحرمات في الزواج والحرام في الطعام وجاء بأنصبة محددة في الميراث، ومطلوب منا أن نجتهد في تطبيق هذه النصوص التطبيق الأمثل، لا أن نجتهد في الاعتداء عليها وتغييرها بالإضافة والتشويه.

ثم جاء التشريع القرآني يحتكم للعرف أو المعروف في التطبيق لأحكامه التفصيلية ولأن تصاغ من العرف والمعروف قوانين إسلامية في إطار القيم الإسلامية الإنسانية العليا المتعارف عليها في كل زمان ومكان من العدل والحرية والسلام والإحسان والتسهيل والتخفيف والرحمة والرفق والعفو.

وبالمعروف يمكن مثلاً تطبيق تلك القيم الإسلامية العليا في

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

المجتمع - وفق العرف السليم ومواءمته للعصر الذي يعيشه الناس - في كل ما تركه القرآن للتقنين البشري، وهذا يدخل فيه كل شيء من قوانين الإسكان إلى المزور والاستيراد والتصدير والهجرة... الخ. الخ.. وكل قانون بشري روعيت فيه تلك القيم السامية فهو تشريع اسلامي أذن به الله تعالى. كما يمكن أيضاً تطبيق التفصيلات التشريعية القرآنية نفسها حسب العرف أو المعروف المتعارف عليه في كل عصر، وذلك لكي يتيح القرآن الكريم المجال للتطور الاجتماعي والإنساني وتظل تشريعات القرآن فوق الزمان وفوق المكان، وما كان يصلح للعصر العباسي مثلاً لا يصلح لعصرنا.

ومثلاً يقول تعالى ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[1] فلم يحدد القرآن مبلغاً من المال بالدرهم والدينار وإنما قال «رزقهن» ليشمل الجانب النقدي والجانب العيني واحتكم للمعروف أي القيمة الإنسانية العليا في القسط والعدل وتطبيق ذلك بالعرف السائد من النقد والعملة وسائر أحوال المعيشة ومدى المناسب لحال المرضعة والوالدة ووضعها ووضع المجتمع، وينبغي هنا أن يقوم الناس بوضع القوانين التي تناسب عصرها في إطار ذلك العرف الذي أشار إليه القرآن الكريم في تلك التفصيلات التشريعية. وهنا يكون الاجتهاد في خدمة النص القرآني.

ويلاحظ أن الاحتكام للعرف والمعروف يتكرر كثيراً في

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

حديث القرآن عن الزواج والأحوال الشخصية باعتبارها أقدم «عرف» تعارف عليه بنو آدم ولا يزال الزواج هو الصيغة الشرعية التي يباركها دين الله، وحين نزل القرآن كان رسول الله محمد قد تزوج زواجاً شرعياً وفق عرف الجاهلية، فالعرب قبل الإسلام لم يكونوا محرومين كلية من التشريعات الصالحة، ولذلك فإن القرآن الكريم لم يوضح لنا مثلاً كيفية عقد الزواج، ولكن نزلت آيات كثيرة تصحح بعض الأخطاء الشائعة في الزواج وعلاقات الزوجين والشقاق بينهما وعدة المطلقة وحقوقها، واحتكم في ذلك للعرف.

والتفصيل في مواضع الاحتكام للعرف والمعروف في تشريع القرآن يخرج عن موضوعنا وموعدها كتاب خاص عن فلسفة التشريع القرآني. ولكن يلفت النظر عناية القرآن بالشورى وأمر النبي بها وهو الذي ينزل عليه الوحي، وجعلها من سمات المجتمع المسلم، وبها يمكن للمجتمع صياغة قوانين في إطار العرف والمعروف سواء في تطبيق التفصيلات التشريعات القرآنية وتنزيلها على الواقع المعاش وفق المتعارف على أنه الأكثر عدلاً ويسراً، أو في استخلاص قوانين جديدة فيما ينفع الناس فيم تركه القرآن للبشر للتقنين وما أذن الله تعالى لهم في تشريعه في إطار وضوابط القيم الإسلامية العليا المشار إليها.

لقد قامت حياة النبي عليه السلام على أساس تبليغ القرآن كما هو وجاهد حتى بلّغ الرسالة وحين اكتملت الرسالة مات النبي وترك لنا الرسالة أو القرآن أو الرسول المقروء بيننا.. وفي حياة النبي كانوا يسألونه ويستفتونه فينتظر الإجابة من الوحي، وبعض هذه الأسئلة كان يمكنه الإجابة عنها ولكن الدين دين الله، والله وحده

هو صاحب الحق في التشريع وليس للنبي أن يفتي وما كان يفعل. ولكنه عليه السلام كان يجتهد في تطبيق النصوص القرآنية وكان يستشير لكي يصل للصيغة المثلى في التطبيق.

وهناك بالنسبة لنا نحن بعد النبي مجالات حددها القرآن للتطبيق الحرفي بلا أدنى تغيير أو تبديل مثل المحرمات في الزواج وعدم تحريم الحلال في الطعام، والأنصبة المحددة في الميراث.

ثم هناك مجالات أباح فيها القرآن للاحتكام للعرف منها ما يخص السلطة الاجتماعية ومنها ما ينفذه المسلم في ضوء تقواه وخشيته من الله مثل الوصية والصدقة..

ثم هناك المشورة في غير وجود النص، والنصوص القرآنية التشريعية محددة ومحدودة مما يعطي فرصة كبرى للتطور الاجتماعي لتحقيق العدالة والقسط والتيسير، وذلك يعطي تشريع القرآن إمكانية الاستمرار في كل مكان وزمان، وهناك أيضاً المشورة في كيفية تطبيق النص أو في تقنين العرف، وأي تشريع يصل إليه المجتمع بالمشورة مستلهماً روح القرآن بهدف تحقيق العدالة والمساواة ومنع الظلم فهو تشريع إسلامي أذن الله تعالى به.

فالهدف من إرسال الرسل وإنزال الكتاب كان إقامة الناس للقسط وفي ذلك يقول تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ..﴾[1] وصدق الله العظيم.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

سُنّة الرسول هي القرآن فقط

السُنّة هي **الشرع** وهي **الطريقة والمنهاج**. وبهذين المعنيين جاءت كلمة السنة في القرآن منسوبة لله ولشرعه ولطريقته في التعامل مع البشر مشركين ومؤمنين..

كانت سنة أو طريقة المشركين هي الاستكبار عن الحق والمكر بالمؤمنين، وكانت طريقة الله معهم أو سنته أن يحيق مكرهم السيئ بهم ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[1].

كان المشركون يرغمون المؤمنين على الهجرة لذا كانت طريقة الله إهلاكهم أو تعذيبهم، يقول ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾[2].

وكانت سنة الله أو طريقته أن يهزم المشركين أمام المؤمنين إذا صدقوا في إيمانهم ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[3].

وتآمر المنافقون في المدينة على النبي والمسلمين وهددهم

(١) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ٧٦، ٧٧.

(٣) سورة الفتح، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

الله بأن يجري عليهم سنته في التعامل مع المشركين ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾[1].

هذه هي السنة بمعنى الطريقة والمنهاج وهي تنسب لله وطريقته في الرد على المشركين.

وتأتي السنة أيضاً بمعنى الشرع. وبهذا الاستعمال نتحدث نحن في لغتنا العادية فنقول «سنّ قانوناً» أي شرّع قانوناً. وحين يسن القانون يكون ملزماً للناس ولابد من طاعته. ونفس المعنى للسنة جاء في الآية الكريمة ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾[2] ففي الآية تجد ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ مرادفة لكلمتي «فرض الله» و«أمر الله» الذي جعله الله قدراً مقدوراً. إذن سنة الله بمعنى الشرع هي الفرض والأمر الإلهي واجب التنفيذ.

وهذا يذكرنا بمعنى السنة الآخر وهو المنهاج والطريقة وكان تعبير القرآن عنها أنه لا تبديل ولا تحويل لسنة الله.

والنبي كان عليه أن ينفذ سنة الله أي شرع الله وأوامره حتى لو كان فيها حرج، وقد نزلت آية ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ

(١) سورة الأحزاب، الآيات: ٦٠ - ٦٢.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٨.

قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ في موضوع زيد بن حارثة وزواجه وطلاقه من زوجته، فقد تحرج النبي من تنفيذ سنة الله أو شرع الله فنزلت هذه الآية، ونستفيد منها أن السنة هي شرع الله، وأن النبي هو أول من ينفذ هذه السنة، ونحن بالتالي نقتدي بالنبي في طاعة سنة الله أو شرعه وأوامره، وينبغي على المؤمن أن يعلم أنه لا فارق بين السنة والفرض لأنهما شرع الله الواجب التنفيذ، فالصلاة والزكاة والحج للمستطيع كلها سنن الله وفرائضه.

وعلماء التراث أطلقوا «السنة العملية» وهي الصلاة ـ على ما توارثناه من كيفية للصلاة عن النبي وقالوا بوجوبها وضرورة الالتزام بها وثبوتها بالقطع واليقين. وهذا صواب في الرأي. إلا أنهم أخطأوا حين نسبوا للرسول أحاديث قولية وقالوا بأنها السنة القولية، فالسنة القولية للرسول هي فقط في القرآن وحديث القرآن وما تكرر فيه من كلمة «قل». وأخطأوا أيضاً حين ناقضوا أنفسهم وجعلوا فارقاً بين السنة والفرض، فجعلوا الفرض واجب التنفيذ مثل الصلوات الخمس وجعلوا السنة هي ما يزيد من نوافل على الصلوات المفروضة، وقد تبين لنا أن السنة هي الفرض ولا فارق بينهما في حديث القرآن ولا في لغتنا العادية حين نقول «سنّ قانوناً».

وبعد هذا التوضيح سيستمر التساؤل: أليست للرسول سنة؟ ويستدرك السائل حين يتذكر عنوان البحث «سنة الرسول هي القرآن فقط» فيحوّر السؤال «أليست للرسول سنة خارج القرآن؟».

والإجابة في القرآن يقول تعالى ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ

كَثِيرًا﴾[1] فلم يقل الله تعالى: «قد كان لكن في رسول الله سنة حسنة» وإنما قال «أسوة حسنة».

فالسنة لله لأنها شرع الله وأوامر الله. أما الاقتداء والتأسي فبالرسول في تطبيقه العلمي لسنة الله وشرع الله.

على أنه من المفيد أن نستزيد فهماً للآية الكريمة والسياق الذي جاءت فيه، فقد نزلت الآية في التعليق على غزوة الأحزاب وفي سورة الأحزاب، وقد كان أهل المدينة عند حصار الأحزاب لهم فريقين: المنافقون وأشياعهم وقد تخاذلوا ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾[2] ثم المؤمنون الذين تماسكوا وثبتوا ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾[3] وكان رسول الله عليه السلام هو القدوة لهم في الشجاعة والثبات لذا يقول تعالى عن موقفه هذا ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وكان هناك من المؤمنين من تأسى بالنبي في هذه الشجاعة وفاق أقرانه فقال عنهم رب العزة ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[4].

إذن فالتأسي بالرسول في هذه الآية كان في سياق قصة وفي موقف محدد. ويؤكد ذلك أن الله تعالى أمر الرسول محمداً

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١٢.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢٢.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

والمؤمنين بالتأسي بإبراهيم والذين معه حين تبّرأوا من قومهم ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ..﴾[1] فقال تعالى يحدد الموقف الذي ينبغي التأسي بهم فيه ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ﴾ ولم يجعل التأسي بهم مطلقاً..

إن الاقتداء والتأسي يعني الاتباع، ولا يكون الاقتداء والتأسي على إطلاقه إلا بكتاب الله. والله تعالى كما أمرنا بالتأسي برسول الله محمد في موقف معين فإنه أمر النبي نفسه بالاقتداء بهدي الأنبياء السابقين فقال ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[2] فلم يقل تعالى «فبهم اقتده» وإنما قال ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾.

ولم يأمر الله خاتم النبيين بالاقتداء والاتباع لإبراهيم وإنما أمره باتباع «ملة إبراهيم» والملة هي دين الله ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[3].

إن الاقتداء والتأسي إنما يكون بشرع الله وسنة رسوله، وهكذا كان يفعل النبي.. والأنبياء هم القدوة الذين نقتدي بهم في مواقف حكى عنها رب العزة وهو وحده الأعلم بهم وبأسرار حياتهم.

---

(١) سورة الممتحنة، الآيات: ٤ ـ ٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٣.

إن سنة الرسول هي القرآن شرع الله..

والله تعالى نسأل أن نعيش على سنة الرسول وأن نموت عليها..

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

يحلو لبعض الناس أن يسيء ـ عن عمد ـ فهم هذه الآية ليلوي معناها ويقطعها عن السياق ليستدل بها على مشروعية المصادر الأخرى التي أضافوها للقرآن الكريم. وحتى نفهم المدلول الحقيقي لقوله تعالى ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ..﴾ ينبغي أن نقرأ الآية من أولها ونراها تتحدث عن الفيء ـ أو ما يفيء إلى بيت المال بلا حرب ولا قتال، يقول تعالى ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا..﴾[1].

فالآية تتحدث عن الفيء وتوزيعه على الفقراء والمحتاجين دون الأغنياء وتقول للمؤمنين: وما آتاكم الرسول من هذا الفيء فخذوه وما نهاكم عنه من التطلع إلى ما ليس من حقكم فانتهوا عنه، ثم تبين الآية التالية استحقاق الفقراء المهاجرين لهذا الفيء بعد أن تركوا أموالهم وديارهم.

وقد كانت عادة سيئة للمنافقين في المدينة أن يربطوا

(١) سورة الحشر، الآيتان: ٧، ٨.

رضاهم عن الإسلام بمدى استفادتهم المالية منه مع أنهم أغنياء نهى الله النبي عن الإعجاب بأموالهم وأولادهم[1] ومع هذا الغنى كانوا يزاحمون الفقراء في الحصول على الصدقات وقال تعالى عنهم ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ..﴾[2] إلى آخر الآية.

وهذه الآيات من سورة التوبة توضح المعنى المقصود لقوله تعالى ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ فشأن المؤمن أن يرضى بما آتاه الرسول ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥ..﴾.

وشأن المنافق أن يطمع فيما ليس حقاً له وألا ينتهي عن طمعه.

وقد أبان رب العزة مستحقي الفيء في سورة الحشر ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ﴾[3].

وأوضح بالتحديد مستحقى الصدقات في سورة التوبة

---

(١) انظر سورة التوبة، الآيات: ٥٥ ـ ٨٥.

(٢) سورة التوبة، الآيات: ٥٨ ـ ٦٠.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٧.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ..﴾[1] وفي الموضعين كان الحديث عما يؤتيه الرسول للمؤمنين وعليهم أخذه والرضا به والانتهاء عما نهى عنه.ولنتذكر هنا أنه عليه السلام كان يحكم بالقرآن بين الناس، وهذا يدخل فيه توزيع الفيء والغنائم والصدقات طبقاً لما جاء في الكتاب الحكيم.

وقد يقال في الرد علينا إن القاعدة الأصولية تقطع بأن خصوص السبب لا يمنع عموم الاستشهاد. فإذا كانت الآية تتحدث عن الفيء فإن قوله تعالى فيها ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ عامة في وجوب الأخذ بما آتانا به الرسول وبوجوب الانتهاء عما نهانا عنه..

ومن السهل الرد على هذا الاحتجاج بما تعنيه كلمة الرسول في القرآن وبوجوب طاعته لأنه في أقواله يقرأ القرآن، والرسول ـ كما سبق بيانه ـ هو نبي الله حين ينطق بالقرآن أو هو القرآن بعد موت النبي. إذن فقد جاءنا الرسول بالقرآن وعلينا التمسك به، والله تعالى يقول ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ..﴾[2] فهذا الكتاب هو الذي نزل على الرسول لنا، وهو ما آتانا به الرسول وعلينا أخذه والتمسك به.

وأما ما نهانا عنه الرسول ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ فهو كتابة غير القرآن ومحو كل مكتوب في الدين خارج كتاب الله.

روى أحمد ومسلم والدارمي والترمذي والنسائي عن أبي سعيد الخدري قول الرسول «لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن فمن

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٤١.

كتب عني غير القرآن فليمحه» وأخرج الدارمي - وهو شيخ البخاري - عن أبي سعيد الخدري أنهم «استأذنوا النبي في أن يكتبوا عنه شيئاً فلم يأذن لهم». ورواية الترمذي عن أبي سعيد الخدري تقول: أستأذنا النبي ﷺ في الكتابة فلم يأذن لنا.

وروى مسلم وأحمد أن زيد بن ثابت - أحد مشاهير كتاب الوحي - دخل على معاوية فسأله عن حديث وأمر إنساناً أن يكتبه فقال له زيد: «إن رسول الله أمرنا ألا نكتب شيئاً من حديثه، فمحاه معاوية».

وقد وردت أحاديث تفيد الإذن بكتابة بعض الحديث مثل «اكتبوا لأبي شاة» وما ورد أن لابن عمرو بعض كتابات وأدعية في الحديث، ولكن المحققين من علماء الحديث رجحوا الأحاديث التي نهت عن كتابة الحديث خصوصاً وأنه لا يعقل أن ينهى النبي عن شيء ثم يأمر بما يناقضه، ثم - وهذا هم الأهم - فإن النبي عندما مات لم يكن مع الصحابة من كتاب مدوّن غير القرآن الكريم.

وبعضهم حاول التوفيق والمواءمة بين الأحاديث التي تنهى عن كتابة غير القرآن وبين الحديث الذي يفيد كتابة بعضهم بقوله بأن المراد حتى لا تلتبس الأحاديث بالقرآن.

وهذه حجة لا تستقيم مع إعجاز القرآن الذي يعلو على كلام البشر والذي تحدى به الله العرب فعجزوا عن الإتيان بسورة من مثله، وذلك القرآن المعجز للعرب كيف يخشى أحد عليه من أن يختلط به شيء آخر؟..

إن الثابت أن رسول الله لم يترك بعده سوى القرآن.

والبخاري يعترف في أحاديثه بأن النبي ما ترك غير القرآن كتاباً مدوناً. يروي ابن رفيع: «دخلت أنا وشداد بن معقل على ابن عباس فقال له شداد بن معقل: أترك النبي من شيء؟ قال: ما ترك إلا ما بين الدفتين - أي القرآن - في المصحف». قال «ودخلنا على محمد ابن الحنفية فسألناه فقال: ما ترك إلا ما بين الدفتين»[1].

ويؤكد أن النبي نهى عن كتابة غير القرآن أن الخلفاء الراشدين بعده ساروا على طريقه فنهوا عن كتابة الأحاديث وعن روايتها..

فأبو بكر الصديق جمع الناس بعد وفاة النبي فقال: «إنكم تحدثون عن رسول الله أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشد اختلافاً فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً، فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرّموا حرامه» وهذا ما يرويه الذهبي في تذكرة الحفاظ. ويروي ابن عبد البر والبيهقي أن عمر الفاروق قال «إني كنت أريد أن أكتب السنن وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله. وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً. وروايه البيهقي «لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً» وروى ابن عساكر قال «ما مات عمر بن الخطاب حتى بعث إلى أصحاب رسول الله فجمعهم من الآفاق.. فقال: ما هذه الأحاديث التي أفشيتم عن رسول الله في الآفاق؟.. أقيموا عندي لا والله لا تفارقوني ما عشت.. فما فارقوه حتى مات».

---

(١) البخاري ج٦ ص٢٣٤. ط. دار الشعب.

وروى الذهبي في تذكرة الحفاظ أن عمر بن الخطاب حبس أبا مسعود وأبا الدرداء وأبا مسعود الأنصاري فقال: «أكثرتم الحديث عن رسول الله»، وكان قد حبسهم في المدينة ثم أطلقهم عثمان.

وروى ابن عساكر أن عمر قال لأبي هريرة: «لتتركن الحديث عن رسول الله أو لألحقنك بأرض دوس ـ أرض بلاده ـ وقال لكعب الأحبار: لتتركن الحديث عن الأول ـ أي أبي هريرة ـ أو لألحقنك بأرض القردة» وكذلك فعل معهما عثمان بن عفان.

وأكثر أبو هريرة من الحديث بعد وفاة عمر إذ أصبح لا يخشى أحداً وكان أبو هريرة يقول «إني أحدثكم بأحاديث لو حدثت بها زمن عمر لضربني بالدرة ـ وفي وراية لشج رأسي ـ ويروي الزهري أن أبا هريرة كان يقول: «ما كنا نستطيع أن نقول قال رسول الله حتى قبض عمر، ثم يقول أبو هريرة: أفكنت محدثكم بهذه الأحاديث وعمر حي؟ أما والله إذن لأيقنت أن المخفقة ـ العصا ـ ستباشر ظهري فإن عمر كان يقول: «اشتغلوا بالقرآن فإن القرآن كلام الله».

وقال رشيد رضا في المنار يعلق على ذلك «لو طال عُمُرُ (عمر) حتى مات أبو هريرة لما وصلت إلينا تلك الأحاديث الكثيرة».

ونكتفي بهذا لإثبات أن النبي أتانا بالقرآن ونهانا عن غيره، وأن كبار الصحابة ساروا على نهجه في التمسك بالقرآن وحده، وأن تدوين تلك الأحاديث المنسوبة للنبي كان ولا يزال معصية

للنبي ومخالفة لأمره حسب ما يروون هم في كتبهم، وأن ذلك التدوين المخالف لشرع الله تعالى ووصية نبيه الكريم لم يبدأ إلا في القرن الثالث، بعد وفاة النبي بقرنين من الزمان.

وهنا نتساءل.. إذا كانت تلك الأحاديث جزءاً من الإسلام كما يدّعون وقد نهى النبي عن كتابتها أليس ذلك اتهاماً للنبي بالتقصير في تبليغ رسالته؟ وهل يعقل أن تكون الرسالة الإسلامية ناقصة وتظل هكذا إلى أن يأتي الناس في عصر الفتن ليكملوا هذا النقص المزعوم؟

إن الذي نعتقده أن النبي عليه السلام قد بلغ الرسالة بأكملها وهي القرآن ونهى عن كتابة غيره، أما تلك الأحاديث فهي تمثل واقع المسلمين وعقائدهم.. وتمثل في النهاية تلك الفجوة الهائلة بين الإسلام وبين المسلمين..

الفصل الثالث

قراءة في» البخاري»
أهم كتب المصدر الثاني

كيف نشأ المصدر الثاني:

العادة أن الله سبحانه وتعالى ينزل على كل نبي كتاباً واحداً كاملاً تاماً مفصلاً، ولكن ما يلبث الشيطان أن يدفع الإنسان إلى التلاعب بدين الله بالتحريف والتزييف في الكتاب الأصلي ثم يدفعهم إلى إنشاء مصادر أخرى تكتسب قدسية، وبطبيعة الحال لابد أن يكون أولئك في صفّ العداء للنبي. والله تعالى يقول ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾[١].

وبدأ منافقو المدينة الكيد للإسلام بهذا الطريق.

* كان المنافقون يدخلون على النبي يقدمون له فروض الطاعة والولاء ثم يخرجون من عنده يتآمرون عليه، وفي ذلك يقول تعالى ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم

(١) سورة الأنعام، الآيات: ١١٢ ـ ١١٤.

غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾(١).

ونفهم من قوله تعالى عنهم ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ أنهم كانوا يزيفون أقوالاً على النبي لم يقلها، أو بتعبير علماء الحديث كانوا يضعون أحاديث مفتراة ينسبونها للنبي. أي إن الكذب على الرسول بدأه المنافقون في حياة النبي نفسه.

وعلماء الحديث يتفقون على صحة حديث «من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار» وبعضهم يضيف إليه كلمة متعمداً «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» وهم يجعلون هذا الحديث من المتواتر، وعدد الحديث المتواتر لا يصل إلى بضعة أحاديث عند أكثر المتفائلين، والمهم أنهم بإقرارهم بصحة هذا الحديث إنما يثبتون أن الكذب على النبي بدأ في حياة النبي نفسه وإلا ما قال النبي هذا الحديث يحذر من الكذب عليه.

ونفهم من قوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ..﴾ إن أولئك المنافقين كانوا معروفين للنبي، والواقع أن المنافقين في عهد النبي كانوا صنفين:

* صنف كان معروفاً للنبي وأمره الله بألا يعجب بأموالهم ولا أولادهم وألا يصلي على أحد منهم مات أبداً ولا يقم على قبره ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ

(١) سورة النساء، الآية: ٨١.

وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[١] وكان منهم من زيّف الحديث على النبي..

* وصنف آخر كان أشد خصومة وأكثر خطورة، وقد توعد الله هذا الصنف بأن يعذبه مرتين في الدنيا وفي الآخرة له عذاب عظيم.. هذا الصنف الشديد الخطورة لم يكن يعرفه النبي. يقول تعالى فيهم ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[٢].

عن المنافقين المعروفين يقول تعالى ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ..﴾ ويجعل لهم عذاباً واحداً في الدنيا إن لم يتوبوا ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾[٣].

أما الصنف الآخر الذي لا يعلمه النبي فقد توعده الله بأن يعذبهم مرتين ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

ونفهم من المقارنة بين الفريقين أن الله تعالى أشار إلى احتمال توبة الصنف الأول المعروف من المنافقين ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ..﴾ أما الصنف الآخر الذي لا يعلمه النبي فقد حكم الله بأنه سيظل سادراً في غيه وكفره إلى نهاية حياته، لذا حكم الله تعالى حكماً مطلقاً بأن يعذبهم مرتين في الدنيا ثم ينتظرهم العذاب

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٨٤، ٨٥

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠١.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٤.

العظيم في الآخرة. وحتى بعد أن قال تعالى عنهم ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ ذكر صنفاً آخر من أهل المدينة خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً وأشار إلى احتمال قبوله لتوبتهم ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾[1].

ثم فيما بعد ذكر صنفاً آخر من أهل المدينة وأشار إلى احتمال توبتهم ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ﴾[2].

إذن فالصنف الوحيد من الصحابة من أهل المدينة الذين حكم الله بأن يظلوا سادرين في الكفر بلا توبة هم أولئك الذين مردوا على النفاق والذين لم يكن للنبي علم بهم. وهذا الصنف عاش على هذا يكيد للإسلام طيلة حياته أثناء حياة النبي وبعد موته عليه السلام..

وإذا كان المنافقون الذين يعرفون النبي قد كذبوا عليه وزيفوا أقواله في حياته فكيف بمن يقول عنهم رب العزة أنهم أدمنوا النفاق وعاشوا عليه ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

وقد كان أولئك من بين الصحابة وفق تعريف علماء الحديث بأن الصحابي هو من صحب النبي أو لقيه في حياته..

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٦.

ومعنى ذلك أنه كان من بين رواة الأحاديث منافقون ظاهرون معروفون للنبي لا يتورعون عن الكيد للإسلام، وكان منهم من أدمن النفاق آمناً من أن يعلم أحد بحقيقة نفاقه ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾. ومن يدري ربما كان منهم بعض المشاهير من الصحابة. علم ذلك عند الله وحده جل وعلا..

وإن كان مستحيلاً أن نضع أيدينا على أسمائهم الحقيقية وشخصياتهم بعد أن حجب الله تعالى العلم بهم عن النبي الكريم.. فإنه من الممكن لنا أن نعثر على رواياتهم التي حملت كل حقدهم على النبي العظيم. وتنوقلت تلك الروايات حتى وجدت طريقها للتدوين فيما عرف بكتب الصحاح.. والذين جمعوا الحديث وقاموا بتنقيته ووضع أسانيد له أصدوا قراراً بأن الصحابة كلهم عدول فوق مستوى الشبهات، ثم لم ينظروا في متن الحديث ومنطوقه وهل يتفق مع القرآن أم لا. ونحن وإن كنا نعتبر القرآن هو المصدر الوحيد لسنة النبي وشريعة الرحمن ودين الله الأعلى فإننا نضع تلك الروايات الحديثية موضعها الصحيح وهي أنها تاريخ بشري للنبي وللمسلمين وصدى لثقافتهم وأفكارهم سواء اتفقت أم لم تتفق مع القرآن. ويعز علينا أن تتناثر بين تلك الروايات سموم تشوه سيرة النبي العظيم الذي نشر دعوة وأقام أمة وأسس دولة وأثر في تاريخ العالم، عليه الصلاة والسلام.. ونحن على موعد مع «صحيح البخاري» في قراءة سريعة لنتعرف منها على خطورة ما أسموه بالمصدر الثاني..

سيرة النبي عليه السلام بين حقائق القرآن وروايات البخاري:

نحن لا نوافق على المقولة الشهيرة بأن البخاري أصح كتاب بعد القرآن. فلو كان البخاري صحيحاً في كل سطر فيه فلا يصح أبداً أن نضعه في موضع مقارنة بكتاب الله العزيز.

والبخاري في نهاية الأمر من أبناء آدم الذين يجوز عليهم الخطأ والنسيان والوقوع في العصيان. وأولئك الذين يحملون في قلوبهم قدسية للبخاري تعصمه من الوقوع في الخطأ إنما يرفعون البخاري إلى مكانة الألوهية من حيث لا يدرون أو من حيث يدرون.

ومن واقع نظرتنا للبخاري كأحد علماء التراث فإننا لا نقصد مطلقاً أن نعقد مقارنة بينه وبين القرآن الكريم، نعوذ بالله من ذلك، وإنما نقصد من هذا المبحث رصد تلك الفجوة بين سيرة النبي في القرآن وبين سيرته المتناثرة بين سطور البخاري.

ونترك الحكم للقارئ ونحن على ثقة من أن ولاء القارئ المسلم العاقل إنما هو لله تعالى ولرسوله الكريم والكتاب العزيز الذي أنزل السيرة الحقيقية للنبي الكريم قرآناً نتعبد بتلاوته ونتقرب إلى الله بقراءته، وحقيق بنا حينئذ أن نؤمن بتلك الصورة السامية التي رسمها القرآن للنبي عليه السلام وأن نكفر ونرفض في ذات الوقت أحاديث البخاري وكل ما يخالف القرآن الكريم من كلام البشر وكتاباتهم.. هدانا الله تعالى للصراط المستقيم..!!

كيف كان النبي يقضي يومه:

لك يا عزيزى القارئ أن تتخيل الإجابة على هذا السؤال وستجدها مطابقة لما جاء في القرآن الكريم. فمنذ أن نزل الوحي على النبي وهو قد ودَّع حياة الراحة وبدأ عصر التعب والإجهاد والجهاد، ويكفي أن أوائل ما نزل من القرآن يقول له ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾[1] أي إن وقت النبي منذ أن نزل عليه الوحي كان بين تبليغ الرسالة والمعاناة في سبيلها ثم قيام الليل.. وليس هناك بعد ذلك متسع للراحة التي هي حق لكل إنسان، وانتقل النبي للمدينة وقد جاوز الخمسين من عمره فزادت أعباؤه، إذ أصبح مسؤولاً عن إقامة دولة وتكوين أمة ورعاية مجتمع، ثم هو يواجه مكائد المنافقين في الداخل والصراع مع المشركين باللسان والسنان، ثم هو بعد ذلك يأتيه الوحي ويقوم على تبليغه وتأسيس المجتمع المدني على أساسه.. ونجح النبي عليه السلام في ذلك كله. وفي السنوات العشر التي قضاها في المدينة إلى أن مات انتصر على كل أعدائه الذين بدأوه بالهجوم، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.. ومع هذا فإنه في حياته عليه السلام لم ينقطع عن قيام الليل ومعه أصحابه المخلصين الذين كانوا الفرسان بالنهار العابدين لله تعالى بالليل، رضي الله عنهم أجمعين..

هذا ما لا نشك لحظة يا عزيزي القارئ في أنك تتفق معنا فيه. بل وكل عاقل من أي ملة ودين لا يملك إلا أن يسلم بأن الذي

---

(١) سورة المدثر، الآيتان: ١، ٢.

أقام دولة من لا شيء ونشر دعوة ونهضت به أمة لا يمكن إلا أن يكون قد وهب وقته كله لله ولدين الله وعمل كل دقيقة في حياته لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى..

وندع اجتهادنا العقلي جانباً ونبحث عن الإجابة في كتاب الله العزيز.

فى بداية الوحي نزل قوله تعالى للنبي ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾(١).

وأطاع النبي ﷺ ونفذ أوامر الله في مكة واستمر على تنفيذها في المدينة.

وكان معه أصحابه يقومون الليل في صلاة وتهجد وتلاوة للقرآن، ولكن الوضع في المدينة اختلف عنه في مكة. أصبح النبي في المدينة مسؤولاً عن دولة الإسلام الجديدة بكل ما تستلزمه الدولة الوليدة من استعداد وجهاد في الداخل والخارج، وأصبح أصحابه معه مشغولين بالجهاد والسعي في سبيل الرزق وتوطيد أركان الدولة الوليدة التي يتربص بها الأعداء في الداخل والخارج. وأصبح قيام الليل بنفس ما تعودوه في مكة مرهقاً لهم يعوقهم عن حسن الأداء في النهار.

لذا نزلت في المدينة الآية الأخيرة من سورة «المزمل» بالتخفيف، حيث يقول رب العزة جل وعلا للنبي الكريم ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ

(١) سورة المزمل، الآيات: ١ ـ ٥.

ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًاۚ﴾.

وأعتقد أن من أعظم ما نزل مدحاً للنبي والمؤمنين معه هو في هذه الآية الكريمة.

فقد جاء في بداية الآية تزكية الله للنبي بأعظم ما يكون ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ﴾ وهل هناك أعظم شهادة من الله وهو تعالى يشهد بصيغة العلم الإلهي بأن النبي طبق أوامر ربه فأقام الليل إلى الثلثين، ثم تأتي شهادة الله للنبي بالتأكيد اللغوي ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ثم تضاف كلمة «رب» إلى كاف الخطاب «ربك» ليكون ذلك التأكيد من رب العزة خطاباً مباشراً من الله تعالى للرسول الكريم في معرض التكريم. ثم يستمر خطاب الله المباشر للنبي ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ..﴾.

ثم تثبت الآية الكريمة أن طائفة من المؤمنين كانت تقوم الليل مع النبي، ولأن الله تعالى يعلم العبء الجديد عليهم في المدينة ولأنه يعلم أن بعضهم سيقع مريضاً لذا أنزل التخفيف عليهم بأن يقرأوا ما تيسر من القرآن مع استمرار الأوامر لهم بالمحافظة على الصلاة المفروضة وإيتاء الزكاة والصدقات..

إذن كان النبي يقضي النهار في الجهاد وتبليغ الدعوة ورعاية الدولة ويقضي ليله في قيام الليل للعبادة، وكان معه أصحابه. هذا

ما يثبته الرحمن في القرآن. وهذا ما ينبغي الإيمان به وتصديقه إذا كنا نحب الله ورسوله ونؤمن بكتابه وندفع عن النبي الأذى وما يشوه سيرته العظيمة.

وإذا بحثنا عن إجابة لنفس السؤال «كيف كان يقضي يومه» في أحاديث البخاري وجدنا إجابة مختلفة وعجيبة..

نقرأ في البخاري حديث أنس «**إن النبي كان يطوف على نسائه في ليلة واحدة وله تسع نسوة**».

وفي حديث آخر لأنس أكثر تفصيلاً يقول «**كان النبي يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة**». قال الراوي: قلت لأنس: أو كان يطيقه؟ قال: «**كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين..**»[١].

وطبقاً لهذه الرواية العجيبة نرى إجابة مختلفة عما ورد في كتاب الله العزيز إذ نفهم منها أن النبي كان يطوف على نسائه كلهن ـ أي يجامعهن ـ ويتعجب الراوي ويسأل أنس هل كان في طاقة النبي ذلك فتكون الإجابة أعجب وهي أن الصحابة كانوا يتابعون النبي ويتحدثون أن الله أعطاه قوة ثلاثين رجلاً في الجماع.. إذن كان اهتمام النبي في الطواف حول نسائه وكان اهتمام أصحابه في متابعة هذا النشاط وفي التفاخر به، ولا تعرف بالطبع من أين لهم ذلك المقياس الجنسي الذكوري الذي جعلوا به

---

(١) البخاري الجزء السابع: ص٤، والجزء الأول ص٧٦. طبعة دار الشعب ـ وهي التي نعتمد عليها في هذا المبحث.

مقدرة النبي الجنسية ـ المزعومة ـ في الجماع تبلغ قوة ثلاثين رجلاً. نعوذ بالله تعالى من هذا الافتراء.

ثم تأتي في أحاديث البخاري روايات أخرى ينسبها لعائشة تقول: **«أنا طّيبت رسول الله ثم طاف في نسائه ثم أصبح محرماً»** ورواية أخرى **«كنت أطيّب رسول الله فيطوف على نسائه ثم يصبح محرماً ينضح طيباً»**[1].

والآن.. هل نصدق حديث القرآن عن النبي وقيامه الليل مع أصحابه وانشغالهم بالجهاد أم نصدق تلك الروايات البشرية؟ نترك لك ذلك عزيزى القارئ. ولا حول ولا قوة إلا بالله..!!

هل كان النبي يباشر نساءه في المحيض؟

والإجابة التي ننتظرها منك عزيزي القارئ هي أعوذ بالله.. ونحن معك في هذا. ونعتذر عن إيراد العنوان بهذا الشكل.. ولكن لا نجد عنواناً آخر للموضوع.

والذي نؤمن به جميعاً أن النبي كان صفوة خلق الله ومن أرقهم ذوقاً وأسماهم خلقاً. ومن كان على هذا المستوى لا ننتظر منه هذا، خصوصاً وأن الله تعالى قال له ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾[2].

---

(١) البخاري: الجزء الأول ص ٧٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

لم يقل رب العزة «فاعتزلوهن» فقط وإنما قال أيضاً ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ أي زيادة في التأكيد والتحذير. ونحن نؤمن بأن النبي طبق هذا السنة، فالسنة الحقيقية للنبي هي في تطبيق القرآن، والله تعالى ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ونبي الله من أئمة المتطهرين في كل عصر..

هذا ما نؤمن به جميعاً عزيزى القارئ، ولكنك حين تقرأ باب الحيض في البخاري تفاجأ بروايات غريبة تحت عنوان غريب هو **«باب مباشرة الحائض»**.

منها حديث ينسب لعائشة **«كنت أغتسل أنا والنبي من إناء واحد كلانا جنب وكان يأمرني فأتّزر فيباشرني وأنا حائض، وكان يخرج رأسه إلي وهو معتكف فأغسله وأنا حائض»** ورواية أخرى عن عائشة **«كانت إحدانا إذا كانت حائضاً فأراد الرسول أن يباشرها أمرها أن تتزر في فور حيضتها ثم يباشرها، قالت: وأيكم يملك إربه كما كان النبي يملك إربه»** ومنها حديث ميمونة **«كان رسول الله إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهي حائض»**.

فالبخاري هنا يسند تلك الروايات لأمهات المؤمنين ليجعلهن شهوداً على أن النبي كان يباشرهن وهن حائضات، ويضع البخاري على لسان عائشة إشارة إلى خصوصية النبي في مقدرته الجنسية فيزعم أن عائشة قالت «وأيكم يملك إربه كما كان النبي يملك إربه»!!

وفي رواية أخرى يجعل البخاري من النبي ملازماً للنساء لا

يفترق عنهن حتى في المحيض، فيروي حديثاً ينسبه لأم سلمة «**بينما أنا مع النبي مضطجعة في خميلة إذ حضت فانسللت فأخذت ثياب حيضتي قال: أنفست؟ قلت: نعم. فدعاني فاضطجعت معه في الخميلة**».

وهكذا أصبح لا عمل أمام النبي ولا مسؤوليات ملقاة على عاتقه إلا أن يجلس في الخميلة مع زوجاته حتى في المحيض.. نعوذ بالله من هذا الافتراء.. بل هناك أكثر من ذلك، يدعي البخاري أن عائشة قالت «**كان النبي يتكىء في حجري وأنا حائض ثم يقرأ القرآن**».. هكذا.. ضاقت كل الأماكن ولم تعد هناك مساجد ولا قيام لليل مع طائفة من الذين آمنوا.. حتى يلجأ النبي إلى ذلك في زعم البخاري[1].

لن نضع عناوين أخرى في هذا الموضوع

ثم تدخل أحاديث البخاري في منعطف خطير في تشويه سيرة النبي عليه السلام تجعلنا نتحرج من أن نضع لها عناوين، وهذا المنعطف الخطير يتناول علاقة مزعومة للنبي عليه السلام بالنساء من غير زوجاته. وكم كنا نود إغفال هذا المنعطف لولا حرصنا على تنزيه نبي الإسلام من هذا الافتراء الذي يسري سريان السم بين سطور البخاري. والذي يقف دليلاً هائلاً على تلك الفجوة بين القرآن والبخاري باعتباره أهم كتب المصدر الثاني لمن يعتقد أن هناك مصادر أخرى مع القرآن.

---

(١) راجع باب الحيض في البخاري: الجزء الأول ص ٧٩.

١ ـ ونبدأ بأحاديث زعم فيها أن النبي كان يخلو بالنساء الأجنبيات. ونقرأ حديث أنس: «**جاءت امرأة من الأنصار إلى النبي فخلا بها فقال: والله إنكن لأحب الناس إلي**» والرواية تريد للقارئ أن يتخيل ما حدث في تلك الخلوة التي انتهت بكلمات الحب تلك.. ولكن القارئ الذكي لابد أن يتساءل إذا كانت تلك الخلوة المزعومة قد حدثت ـ فرضاً ـ فكيف عرف أنس ـ وهو الراوي ما قال النبي فيها؟.

وفي نفس الصفحة التي جاء فيها ذلك الحديث يروي البخاري حديثاً آخر ينهى فيه النبي عن الخلوة بالنساء، يقول الحديث «**لا يخلونّ رجل بامرأة إلا مع ذي محرم**» وذلك التناقض المقصود في الصفحة الواحدة في «صحيح البخاري» يدفع القارئ للاعتقاد بأن النبي كان ينهى عن الشيء ويفعله.. يقول للرجال «**لا يخلون رجل بامرأة**» ثم يخلو بامرأة يقول لها «**والله إنكن لأحب النساء إلي**».

هل نصدق أن النبي ﷺ كان يفعل ذلك؟ نعوذ بالله...[١]..

٢ ـ ثم يسند البخاري رواية أخرى لأنس تجعل النبي يخلو بأم سليم الأنصارية، تقول الرواية «**إن أم سليم كانت تبسط للنبي نطعاً فيقيل عندها ـ أي ينام القيلولة عندها ـ على ذلك النطع، فإذا نام النبي أخذت من عرقه وشعره فجعلته في قارورة ثم جمعته في سك**»[٢].

---

(١) راجع البخاري: الجزء السابع ص ٤٨.

(٢) البخاري الجزء الثامن ص ٧٨.

ويريدنا البخاري أن نصدق أن بيوت النبي التي كانت مقصداً للضيوف كانت لا تكفيه وأنه كان يترك نساءه بعد الطواف عليهن ليذهب للقيلولة عند امرأة أخرى، وأثناء نومه كانت تقوم تلك المرأة بجمع عرقه وشعره.. وكيف كان يحدث ذلك.. يريدنا البخاري أن نتخيل الإجابة.. ونعوذ بالله من هذا الإفك.

٣ ـ ثم يؤكد البخاري على هذا الزعم الباطل بحديث أم حرام القائل «**كان رسول الله يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن أبي الصامت فدخل عليها رسول الله فأطعمته وجعلت تفلي رأسه فنام رسول الله ثم استيقظ وهو يضحك فقالت: وما يضحكك يا رسول الله؟... إلخ**» فالنبي على هذه الرواية المزعومة تعوّد الدخول على هذه المرأة المتزوجة وليس في مضمون الرواية وجود للزوج، أي تشير الرواية إلى أنه كان يدخل عليها في غيبة زوجها، ويصور البخاري كيف زالت الكلفة والاحتشام بين النبي وتلك المرأة المزعومة، إذ كان ينام بين يديها وتفلي له رأسه وبالطبع لابد أن يتخيل القارئ موضع رأس النبي بينما تفليها له تلك المرأة في هذه الرواية الخيالية، ثم بعد الأكل والنوم يستيقظ النبي من نومه وهو يضحك ويدور حديث طويل بينه وبين تلك المرأة نعرف منه أن زوجها لم يكن موجوداً وإلا شارك في الحديث.

وصيغة الرواية تضمنت الكثير من الإيحاءات والإشارات المقصودة لتجعل القارئ يتشكك في أخلاق النبي. فتقول الرواية «**كان رسول الله يدخل على أم حرام..**» ولاحظ اختيار لفظ الدخول على المرأة ولم يقل كان يزور والدخول على المرأة له

مدلول جنسي لا يخفى، والايحاء هنا موظف جيداً بهذا الأسلوب المقصودة دلالته. ثم يقول عن المرأة «**وكانت أم حرام تحت عبادة بن أبي الصامت**» فهنا تنبيه على أنها متزوجة ولكن ليس لزوجها ذكر في الرواية ليفهم القارئ أنه كان يدخل على تلك المرأة المتزوجة في غيبة زوجها، وهي عبارة محشورة في السياق عمداً حيث لا علاقة لها بتفصيلات الرواية. الا أن حشرها هكذا مقصود منه أن النبي كان يدخل على امرأة متزوجة في غيبة زوجها ويتصرف معها وتتعامل معه كتعامل الزوجين. وحتى يتأكد القارىء أن ذلك حرام وليس حلالاً يجعل البخاري اسم المرأة «أم حرام» ليتبادر إلى ذهن القارئ أن ما يفعله النبي حراماً وليس حلالاً. ثم يضع الراوي ـ بكل وقاحة ـ أفعالاً ينسبها للنبي عليه السلام لا يمكن أن تصدر من أي إنسان على مستوى متوسط من الأخلاق الحميدة فكيف بالذي كان على خلق عظيم.. عليه الصلاة والسلام، فيفتري الراوي كيف كانت تلك المرأة تطعمه وتفلي له رأسه وينام عندها ثم يستيقظ ضاحكاً ويتحادثان.. نعوذ بالله من الافتراء على رسول الله..

وقد كرر البخاري هذه الرواية المزعومة بصور متعددة وأساليب شتى ليستقر معناها في عقل القارئ[1].

٤ ـ ولا تقتنع روايات البخاري بذلك.. إذ يروى عن بعضهم حديثاً يقول «**خرجنا مع النبي ﷺ حتى انطلقنا إلى حائط ـ أي بستان أو حديقة ـ يقال له الشوط، حتى انتهينا إلى**

(١) راجع البخاري: الجزء الرابع ص ١٩، ٢١، ٣٩، ٥١ والجزء الثامن ص ٧٨ والجزء التاسع ص ٤٤.

حائطين فجلسنا بينهما فقال النبي: اجلسوا هاهنا، ودخل وقد أتى بالجونية فأنزلت في بيت نخل في بيت أميمة بنت النعمان ابن شراحيل ومعها دايتها حاضنة لها، فلما دخل عليها النبي ﷺ قال: هبي نفسك لي. قالت: وهل تهب الملكة نفسها للسوقة، فأهوى بيده عليها لتسكت فقالت: أعوذ بالله منك..»[1].

وبالتمعن في هذه الرواية الزائفة نشهد رغبة محمومة من البخاري لاتهام النبي بأنه حاول اغتصاب امرأة أجنبية جيء له بها، وأنها رفضته وشتمته باحتقار. فالراوي يجعل النبي يذهب عامداً إلى المكان المتفق عليه وينتظره أصحابه في الخارج، والمرأة الضحية ـ واسمها الجونية ـ قد أحضروها له، ونفهم من القصة أنها مخطوفة جيء بها رغم أنفها. ويدخل النبي في تلك الرواية المزعومة على تلك المرأة وقد جهزتها حاضنتها أو وصيفتها لذلك اللقاء المرتقب، والمرأة في تلك الرواية المزعومة لم تكن تحل للنبي لذا يطلب منها أن تهب نفسها له بدون مقابل، وترفض المرأة ذلك بإباء وشمم قائلة «**وهل تهب الملكة نفسه للسوقة؟**» أي تسب النبي في وجهه ـ بزعم البخاري ـ وبدلاً من أن يغضب لهذه الاهانة يصر على أن ينال منها جنسياً ويقترب منها بيده فتتعوذ بالله منه، أي تجعله ـ في تلك الرواية الباطلة ـ شيطاناً تستعيذ بالله منه.. ولكن ذلك البناء الدرامي لتلك القصة الوهمية البخارية ينهار فجأة أمام عقل القارئ الواعي.. إذا كان الراوي للقصة قد سجل على نفسه أنه انتظر النبي في الخارج فكيف تمكن من إيراد الوصف التفصيلي والحوار الذي حدث في خلوة بين الجدران؟؟

---

(١) راجع البخاري الجزء السابع ص ٥٣.

٥ - ولا تتورع أحاديث البخاري عن نسبة الألفاظ النابية والتعبيرات المكشوفة الخارجة للنبي عليه السلام، وذلك حتى تكتمل صورة الشخص المهووس بالجنس والنساء التي أحاط بها شخصية النبي عليه السلام وسيرته في ليله ونهاره.

فهناك حديث نسبه البخاري للنبي جعل النبي يقص قصة إسرائيلية يقول فيها «**وكان في بني إسرائيل رجلٌ يقال له جريج كان يصلي جاءته أمه فدعته فقال: أجيبها أو أصلي فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات**»[١].

إن الرجل المحترم لا يستطيع أن يتلفظ بهذه الكلمة (المومسات) فكيف برسول الله عليه الصلاة والسلام.. وتلك القصة لا تستند إلى منطق درامي في عالم التأليف.واعتقد أن الهدف من صياغتها الركيكة هي أن يضعوا كلمة نابية على لسان الرسول بأي شكل..

ومثله حديث آخر مزعوم يرويه البخاري ويعلن شكّه فيه يقول «فيمن يلعب بالصبي إن أدخله فيه فلا يتزوجن أمه..» ومنطق ذلك الحديث الكاذب يعطي انطباعاً أنه صيغ في العصر العباسي عصر المجون والشذوذ، ولم يكن ذلك الشذوذ معروفاً في الجزيرة العربية حتى نهاية الدولة الأموية وقد قال أحد الأمويين إنه لولا القرآن ذكر أفعال قوم لوط ما صدق أن ذلك يمكن حدوثه[٢].

(١) البخاري: الجزء الرابع ص ٢٠١.
(٢) القائل هو الخليفة الوليد بن عبد الملك: تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٤٤. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

والبخاري أورد ذلك الحديث وشكك فيه[1] وإذن لماذا رواه؟

وتفوح الإيحاءات الجنسية المثيرة من بعض أحاديث البخاري التي ينسبها للنبي مثل «**لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها آخر اليوم**»[2] وما الذي نستفيده من هذه النصيحة غير الغالية.

وحديث آخر عن متى يجب الغسل من الجماع «**إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل**»[3] وهو حديث ينبغي منع الشباب من قراءته.

ويجعل البخاري هذه النوعية من الأحاديث الجنسية تدور حول أم المؤمنين عائشة مثل «**فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»[4] ثم ذلك الحوار المزعوم بين النبي وعائشة وهي تقول له «**أرأيت لو نزلت وادياً وفيه شجر وقد أُكل منها ووجدت شجراً لم يؤكل منها، في أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: في الذي لم يرتع منها. تعني أن رسول الله لم يتزوج بكراً غيرها**»[5].

وأسوأ ما في هذه الأحاديث المكشوفة هو لفظ أورده البخاري لا نجرؤ على كتابته ونترك للقارئ فهمه والبحث عنه بنفسه، يقول «**لما أتى ماعز بن مالك النبي ﷺ قال له: لعلك**

(١) البخاري: الجزء السابع ص ١٤.
(٢) البخاري الجزء السابع ص ٤٢.
(٣) البخاري: الجزء الأول ٧٧.
(٤) البخاري: الجزء الرابع ص ٢٠٠.
(٥) البخاري: الجزء السابع ص ٦.

قبلت أو غمزت أو نظرت: قالا لا... قال (.....)[1] لا يكني، قال فعند ذلك أمر برجمه»[2].

وعقوبة الرجم تشريع ما أنزل الله بها من سلطان. وشاء واضعو هذا التشريع أن ينسبوا للنبي تلك الكلمة البذيئة في تحقيقه المزعوم مع مرتكب الزنا ماعز بن مالك. فادعوا أن النبي قال له «.....» وأنه قالها له صريحة بلا كناية «لا يكني».

هل نتصور قائد أمة يتلفظ بهذا اللفظ النابي؟ فكيف بالرسول الكريم الذي قال فيه ربنا جل وعلا ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾!!! نعوذ بالله من الكذب على رسول الله...

٦ ـ ويصل افتراؤهم على الرسول عليه السلام إلى حد أنهم ينسبون له تشريعاً بإباحة الزنا وتحريم الزواج. فالبخاري ينسب للنبي قوله «**أيما رجل وامرأة توافقا فعشرة ما بينهما ثلاث ليال فإن أحبا أن يتزايدا أو يتتاراكا**»[3] ومعناه الواضح أن أي رجل أعجبته امرأة ونال هو إعجابها فله أن يعاشرها ثلاث ليال ثم لهما الحرية في أن يطيلا فترة المعاشرة أو أن يتركها بعد تلك التجربة الحمراء.

واختيار الألفاظ واضح في الدعوة للزنا في ذلك الحديث الكاذب، فقال «رجل وامرأة» و«توافقا» و«عشرة ما بينهما» و«ثلاث ليال» «أحبا أن يتزايدا» «يتتاراكا».

---

(١) تركنا الفراغ ولم نكتب اللفظ القبيح حياءً من القارئ.
(٢) البخاري الجزء الثامن ص ٢٠٧.
(٣) البخاري: الجزء السابع ص ١٦.

ونأسف لأننا أوردنا كل ألفاظ الحديث تقريباً.. ومعذرة إذا نسينا أول وأهم كلمة فيه وهي «أيّما» التي تجعل من الحديث تشريعاً عاماً يسوغ الزنا لكل رجل وامرأة.

ثم هناك حديث آخر يفتري فيه البخاري أن النبي حرّم الزواج الشرعي، إذ يروي أن النبي خطب على المنبر فقال **«إن بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم. فإنما هي بضعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها»**[1]. وقد يقول قائل إن من حق النبي أن يغضب إذا أراد علي بن أبي طالب أن يتزوج على فاطمة بنت النبي، ولكن الحديث الذي رواه البخاري يجعل النبي يحرم ذلك الزواج بصفته رسولاً وجعله يعلن ذلك على منبر المسجد أمام المسلمين، وبذلك أكسبه صفة التشريع.. تشريع يحرم الزواج الحلال. ولا نعتقد أن نبي الله يفعل ذلك..

٧ ـ ثم نرى أحاديث أخرى تهتك -حرمة بيت النبي وتتسلل إلى أدق خصوصياته مع نسائه أمهات المؤمنين. ونقرأ أحاديث من هذه النوعية:

حديث منسوب لعائشة **«كنت أغتسل أنا والنبي من إناء واحد من قدح يقال له المفرق»** وحديث منسوب لابن عباس **«أن النبي وميمونة كانا يغتسلان من إناء واحد»** وحديث آخر تقول فيه

(١) البخاري الجزء السابع ص ٤٧ و ٦١.

ميمونة «**وضعت للنبي ماء للغسل فغسل يديه مرتين أو ثلاثة ثم أفرغ على شماله فغسل مذاكيره ثم مسح يده بالأرض.. إلخ**» وحديث «**أن النبي اغتسل من الجنابة فغسل فرجه بيده ثم..**» ولم يكن الغسل بالشيء المعقد أو الجديد الذي لم يعرفه الناس من قبل، بل إن كل إنسان يعرف كيف يغسل جسده. ولكنه الحرص من هذه الروايات على أن تصور لنا النبي عارياً في هذه الحالات الخاصة مع نسائه، ثم نجد حديثاً عجيباً يفتري فيه البخاري أن أحدهم قال: «**دخلت أنا وأخو عائشة على عائشة فسألها أخوها عن غسل النبي فدعت بإناء نحواً من صاع فاغتسلت وأفاضت على رأسها وبيننا وبينها حجاب**»[1] أصبح الغسل مشكلة المشاكل، ومن أجلها تقدم عائشة ـ في زعمهم ـ ذلك البيان العملي فتغتسل أمام الناس، وما يغني الحجاب المزعوم في تلك القصة المبكية الضاحكة؟ ولكنه الحرص على تعرية النبي وأمهات المؤمنين أمام عقولنا.. نعوذ بالله من هذا الإفك..

وحتى صلاة النبي في بيته لم يتركها البخاري دون إيحاءات جنسية تهتك حرمة البيت الكريم.. وتدور الروايات كالعادة حول عائشة فينسبون لها قولها «**كنت أنام بين يدي رسول الله ورجلاي في قبلته فإذا سجد غمزني فقبضت رجلي فإذا قام بسطتهما**» وفي رواية «**أن رسول الله كان يصلي وهي بينه وبين القبلة**» وحديث عروة «**أن النبي كان يصلي وعائشة معترضة بينه وبين القبلة على الفراش الذي ينامان عليه**»[2].

---

(١) البخاري: الجزء الأول ص ٦٩: ٧١.

(٢) البخاري: الجزء الأول ص ١٠٢.

هل يرضى أحدنا أن يهتك الناس خصوصياته في بيته ومع زوجته بمثل ما فعل البخاري ببيت النبي ﷺ؟ وإذا قالوا إن هذا للتشريع وللتعليم فأي تشريع وأي تعليم في هذه الروايات الفاضحة التي تهتك حرمة أعظم بيت؟ ثم لماذا الإصرار على أم المؤمنين عائشة بالذات؟

الافتراء على عائشة في حديث الإفك:

إذا ذكرت حديث الإفك انصرف ذهن السامع إلى اتهام عائشة بالزنا ونزل براءتها من السماء تأسيساً على ما جاء في سورة النور من آيات تتحدث عن موضوع «الإفك». وإذا حاول باحث أن يتفهم الآيات وأن يناقش روايات التراث عن موضوع حديث الإفك تناولته الاتهامات كما لو أن أسطورة تخلف عائشة عن ركب النبي واتهامها أصبحت من المعلوم من الدين بالضرورة.

وملخص الأسطورة التي ذكرها البخاري[١] أن النبي كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيهن خرج سهمها خرج بها الرسول معه.

وفي غزوة بني المصطلق كانت القرعة من نصيب عائشة، وأثناء رجوع الجيش افتقدت عائشة قرطها فنزلت تبحث عنه وانطلق الجيش وهم يظنونها داخل الهودج.. ورجعت عائشة فوجدت الجيش قد انطلق فنامت مكانها إلى أن جاء صفوان بن المعطل السلمي فحلمها على جمله وأتى بها إلى المدينة، فاتهمها المنافقون به وغضب منها الرسول إلى أن نزلت فيها آيات سورة

(١) الجزء الخامس ص ١٤٨، الجزء السادس ص ١٢٧.

النور تعلن براءتها[1]. ومع ذلك فلا يزال حديث الإفك وصمة تطارد عائشة وتنسج الخيالات المريضة حولها أساطير وروايات، ووجد فيه بعض المستشرقين مجالاً للطعن في شرف عائشة وفي اتهام النبي بأنه اختلق الآيات ليبرئها، وهذه إحدى أفضال البخاري والمصدر الثاني علينا وعلى ديننا الحنيف..!!

إن حقيقة الأمر أن عائشة «أم المؤمنين وأمنا نحن إذا كنا مؤمنين» لا علاقة لها مطلقاً بحديث الإفك المذكور في سورة النور.

وأساس هذا الافتراء على عائشة يبدأ بأكذوبة «أن النبي كان إذا خرج لغزوة أقرع بين نسائه واصطحب إحداهن..» والقرآن الكريم ينفي أن النبي كان يصطحب معه نساءه في غزواته، فالله تعالى يقول للنبي عنه خروجه لغزوة بدر ـ أولى الغزوات ـ ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ..﴾[2] والبيت يعني الزوجة، وفي توضيح أكثر يقول تعالى عن نفس الغزوة ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ...﴾[3] أي خرج النبي عن أهله، والأهل هم الزوجة والزوجات ـ لكي يصفّ المؤمنين للقتال.

إذن لم يكن معه واحدة من نسائه منذ أول غزوة غزاها..

وفي غزوة الأحزاب في العام الخامس من الهجرة، نزلت سورة الأحزاب وفيها الأمر بالحجاب لنساء النبي والأمر حاسم لهن

---

(١) انظر سورة النور، الآيتان: ١١ و ٢٦.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢١.

بأن يمكثن في البيت ولا يخرجن منه ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[1] فكيف يأمرهن الله بالبقاء في البيت ويأتي النبي فيصطحبهن في غزوة بني المصطلق فيما بعد؟.

لقد كان ترك النساء في المدينة بعيداً عن الغزوات عادة إسلامية حرص عليها النبي والمسلمون بحيث لم يكن يتخلف عن الغزو إلا النساء والأطفال والشيوخ غير القادرين.

وحين تخلف المنافقون عن الخروج مع النبي في احدى معاركه الدفاعية نزل القرآن يعيّرهم ويسخر منهم بأنهم رضوا بأن يتخلفوا مع النساء والصبيان ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ..﴾[2] فهل من المعقول أن يصطحب النبي زوجاته معه عرضة لخطر الحرب بينما تبقى بقية النساء آمنات في المدينة؟.

ولكن عن ماذا تتحدث سورة النور ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ...﴾[3]؟

إن سورة النور من أوائل ما نزل في المدينة، لذا جاءت بتشريعات اجتماعية جديدة لصيانة المجتمع الإسلامي الجديد في أوائل استقراره بالمدينة، ولنا أن نتصور المدينة في أول العهد بها حين جاءها المهاجرون والمهاجرات ليعيشوا بين الأوس والخزرج

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٨٧، ٩٣.
(٣) سورة النور، الآية: ١١.

وفيهم الأنصار المؤمنون وفيهم ضعاف الإيمان والمنافقون وحولهم اليهود. والمهاجرون والمهاجرات بين أنصاري يؤثرهم على نفسه ولو كان به خصاصة وبين منافق يستثقل وجودهم وينتظر الفرصة ليصطاد في الماء العكر وسط ذلك الخليط البشري الذي تكدس لأول مرة في مكان واحد. ولا ريب أن المهاجرين كانوا في حاجة للعون بعد أن تركوا أموالهم وديارهم وجاءوا إلى المدينة لا يملكون شيئاً إلا الإيمان وحب الإسلام. ولا ريب أن بعض المهاجرات كان حالهن أشد بؤساً فقد تركن أزواجهن المشركين فراراً بدينهن، ولا ريب أيضاً أنهن كن يتلقين مساعدات من بعض مؤمني الأنصار الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.. ولا ريب أن المنافقين وجدوا فرصتهم في تشويه ذلك العمل النبيل بإشاعة قصص كاذبة عن علاقات آثمة بين أولئك المؤمنين والمؤمنات من المهاجرات والأنصار..

إن هذا التصور لفهم آيات سورة النور عن موضوع الإفك يستند إلى فهم حقيقي للظروف التاريخية الواقعية للسنوات الأولى لاستقرار المجتمع المسلم في المدينة حيث تم التآخي بين المهاجرين والأنصار ونزلت سورة النور بتشريعات اجتماعية تنظم السلوكيات داخل هذا المجتمع، وكان ذلك قبل غزوة بني المصطلق بعدة سنوات، فليس ما جاء في هذه السورة أدنى علاقة بتلك الأسطورة التي حاكها البخاري وكتب الحديث عن عائشة ومسيرتها المزعومة مع النبي في الجيش.

ويؤكد ذلك أن آيات سورة النور تتحدث عن اتهام جماعة من أهل المدينة لجماعة من المؤمنين الأبرياء، تتحدث عن جماعة

ظالمة اتهمت جماعة بريئة، تتحدث عن مجموعة ولا تتحدث عن ضحية واحدة وإنما عن مجموعة من الضحايا البريئات. سورة النور لا تتحدث عن أم المؤمنين عائشة، ولو كان لها علاقة بحديث الإفك لنزل ذلك في القرآن صراحة، فقد عهدنا القرآن أكثر اهتماماً بكل ما يخص بيت النبي وأمهات المؤمنين. فقد تحدث عن أمهات المؤمنين وبيت النبي في سورة الأحزاب وفي سورة التحريم وخاطبهن مباشرة في أمور أقل خطراً من ذلك الاتهام المزعوم لعائشة. ولكن القرآن في سورة النور لا يشير مطلقاً إلى عائشة أو أي واحدة من نساء النبي وإنما يتحدث عن عموم المؤمنين في حادث إفك اهتزت له المدينة في أول العهد بها وقد تكدس فيها المهاجرون والأنصار لأول مرة.. ولنراجع معاً آيات سورة النور..

تبدأ السورة بتقرير عقوبة الزنا (وهي الجلد لا الرجم)، ثم عقوبة رمي المحصنات ثم قضية التلاعن بين الزوج وزوجته، ثم تدخل السورة على حديث الإفك بتقرير نفهم منه شيئين:

١ ـ إن عقوبات الزنا وقذف المحصنات له علاقة مباشرة بالحديث التالي عن الاشاعات التي راجت في المدينة وقتها.

٢ ـ إن حديث الافك ليس خاصاً بإحدى نساء النبي وانما هو أمر اشترك فيه جماعة من المؤمنين اتهموا جماعة أخرى من المؤمنين إثماً وعدواناً. وهذا لايجوز في اخلاقيات المجتمع المسلم الذي ينزل عليه الوحي القرآني. في ذلك يقول الله تعالى يخاطب المؤمنين جميعاً في المدينة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فالخطاب هنا عام للمؤمنين جميعاً، فليس ذلك الحديث «الإفك» شراً للمؤمنين بل هو خير لهم

لأنه بسببه أنزل الله في السورة التشريعات التي تنظم الحياة الاجتماعية للمسلمين حتى لا يتكرر المجال للتقولات والإشاعات.

ثم تقول الآية التالية تتحدث عن عموم المؤمنين أيضاً ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾[1] إذن هي تهمة عامة تمس مجتمع المسلمين جميعاً وكان ينبغي عليهم أن يرفضوها وأن يظنوا بأنفسهم خيراً، وتمضي الآيات على نفس الوتيرة تخاطب جموع المسلمين لأن المظلومين جماعة والذين ظلموهم جماعة أخرى، وقد تداول المسلمون أقوال الظلمة بدون تروٍ أو تدبر، تقول الآيات ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ولأن المظلومين مجموعة والظلمة أيضاً مجموعة تقول الآية التالية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ فالمنافقون أرادوا بتوزيعهم التهم على مجموعات المؤمنين أن تشيع

(١) سورة النور، الآية: ١٢.

الفاحشة في الذين آمنوا، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف[1] وتوعدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

وينهاهم رب العزة عن اتباع خطوات الشيطان، ثم تلتفت الآية لبعض المحسنين الذين توقفوا عن الصدقة مخافة أن تلوكهم الألسنة ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا..﴾.

ولأن المظلومين جماعة من المسلمات العفيفات فإن الله توعد الظلمة بعذاب شديد ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

ونتوقف مع كلمة «المحصنات الغافلات» فهي الموضع الوحيد في القرآن الذي أتت فيه صفة الغفلة بمعنى السذاجة وطيبة النية، وما عداه فإن صفة الغفلة تلحق بالذي يعرض عن الحق ويلهو عنه. ووصف المحصنات البريئات بالغفلة دليل على أنهن كن يتصرفن بالسجية والفطرة النقية في التعامل مع الناس، ولو كان مجتمع المدينة خالياً من المنافقين والذين في قلوبهم مرض ما لحقت بهن الشبهات والاتهامات. والله تعالى دافع عن هؤلاء المحصنات الغافلات المؤمنات ولعن من اتهمهن في شرفهن. ثم يقول تعالى ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ إذن جاءت البراءة من الوقوع في الإثم الخبيث لأولئك

(١) انظر سورة التوبة، الآية: ٦٧.

الطيبات وأولئك الطيبون ولأنهم جماعة قال عنهم ربنا تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

ثم أتت الآيات التالية تتحدث عن تشريع الاستئذان حتى لا يتكرر دخول بعض الناس بلا إذن كما كان مألوفاً في الجزيرة العربية، وحتى لا يكون هناك مجال للشبهات والأقاويل، ثم توالت التشريعات الاجتماعية في الزي والنكاح.. وذلك هو الخير الذي قالت عنه الآية الأولى في موضوع الإفك ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ﴾.

ويبقى السؤال: ما علاقة عائشة بذلك كله؟.

لا شيء.. لقد جرت أم المؤمنين عائشة على نفسها نقمة الكثيرين بسبب دورها في الفتنة الكبرى وموقعة الجمل. لذا تخصصت طوائف من الشيعة في الهجوم عليها واتهامها في شرفها، وكل الأحاديث المفتراة التي تهتك حرمة رسول الله كان النصيب الأكبر فيها لعائشة.. ومن يقولون إنهم أهل السنة يدافعون عن تلك الأحاديث ويعتبرون نقدها وتبرئة الرسول وأهل بيته منها إنكاراً للسنة..!! ويكفينا أن الجميع لا يزالون حتى الآن يربطون عائشة بحديث الإفك منهم تصديقاً لمفتريات ما يسمى بالمصدر الثاني..

هل كان لدى النبي متسع ليكون كما وصفته تلك الأحاديث؟

لقد جعلت تلك الأحاديث من قوة النبي الجنسية قضية نضطر لمناقشتها لتبرئة ساحة النبي منها. لقد تزوج النبي وهو شاب من خديجة وهي تكبره في العمر وظل مخلصاً لها في حياته طيلة فترة شبابه، ثم تعددت زيجاته وهو بعد الخمسين لغير سبب

الشهوة.. وماذا يبقى للإنسان بعد الخمسين خصوصاً إذا كان يحمل هموماً ومسؤوليات ينوء بحملها عشرات الرجال الأشداء؟ ولنتذكر كيف كان يواجه أعداءه من مشركين ومنافقين، وكيف تنوعت هذه المواجهة بين مؤامرات وغزوات وحصار، ثم كيف كان مسؤولاً في هذا السن عن إقامة دولة وتأسيس أمة ونشر دعوة وتكوين مدرسة وإعداد قادة. وذلك جميعه أقامه رجل واحد في العشر سنوات الأخيرة من حياته، تلك العشر سنوات التي ملأتها كتب الأحاديث بروايات تصوره شخصاً آخر لا اهتمام له إلا بالجماع وصحبة النساء.

لقد كان النبي تكاد نفسه تذهب حزناً على عناد قومه ومكرهم، ويحمل الدعوة في قلبه قبل جوارحه وينشغل بها وبإدارتها مع تبليغه الرسالة وتكوينه الدولة وإعداده للمدرسة التي تربت على هديه، فهل يتبقى فيه متسع بعد ذلك كله لأن يكون كما تصوره لنا كتب التراث؟ يكفينا ما أشارت إليه سورة الأحزاب في الخطاب المباشر لنساء النبي من رب العزة، فقد أردن التمتع بحلال الدنيا شأن كل النساء في المدينة، وكانت النتيجة أن الله أمر النبي أن يخيرهن بين تحمل البقاء معه أو أن يطلقهن ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾﴾[1].

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٨: ٢٩.

القرآن يحرص على حرمة بيت النبي التي هتكتها أحاديث البخاري:

مهما بلغت دناءة الإنسان فإنه يرفض أن يقتحم الناس أسرار بيته أو علاقة والده الجنسية بوالدته. والعادة لدينا نحن أهل العروبة والإسلام أن نستنكف من كشف أسماء النساء من العائلة، ولكننا في نفس الوقت لا نرى تحرجاً من الإيمان بأحاديث البخاري التي تطعن في بيت النبي ونسائه وتهتك حرمته وحرمتهن وتجردهم من ملابسهم عراة أمام عقولنا.. ومعذرة للتعبير..

على المسلم الذي يقرأ هذا الكتاب أن يختار بين شيئين لا ثالث لهما:

١ ـ اما أن ينتصر للنبي محمد الذي ظلمه البخاري بتلك الأكاذيب المفتراة، وقد فعل البخاري ذلك عمداً وعن علم ودراية بما يفعل. وهذا واضح لكل ذي عقل ناقد وفهم لحرفة الكتابة والتأليف. والانتصار للنبي ﷺ يعني شيئاً محدداً هو أن يرفع المسلم صوته ـ إن لم يستطع الكتابة ـ معلناً للناس أن البخاري عدو لله تعالى ورسوله لينبه المسلمين الى هذه الحقيقة وليدلهم عليها ويدعوهم الى قراءة البخاري وطعنه المستمر والمستتر لخاتم النبيين.

٢ ـ وأما أن يوالي البخاري في ظلمه للنبي، أو أن يسكت على ظلم البخاري للنبي رهبة وخوفاً وتقديساً للبخاري واسمه، وهو بذلك يثبت لنفسه وللآخرين أنه يعبد البخاري ويقدسه ويبارك أو يسكت على طعنه في رسول الله ﷺ .

كل منا حرّ في اختياره مع حق النبي المظلوم أو مع البخاري الظالم، وكل منا مسؤول امام الله تعالى عن موقفه واختياره. ان الايمان ليس كلمة تقال أو مجرد شعار يرفع أو تعريف يكتب في البطاقة الشخصية وشهادة الميلاد، ولكنه موقف عملي عفوي يتخذه كل انسان دفاعاً عما يؤمن به ومن يؤمن به. وفي هذا الموقف يكتشف كل انسان حقيقة ايمانه وواقع توجهه العقيدي. وبذلك فهذا الكاتب هو كتاب كاشف لكل مسلم عن خبايا نفسه اذ يضعه في مواجهة صريحة مع الذات قبل أن يفوت الأوان.

المؤمن حق الايمان بالله تعالى ورسوله يحدد موقفه من الآن مهتدياً بقوله تعالى عن خاتم النبيين ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾[1] فاذا كان المؤمن يغضب اذا انتهك بعض الناس خصوصيات امه وابيه واسرارهما الجنسية والشخصية أو قام بفضحهما بقصص ملفقة على الملأ فإن الواجب عليه كمؤمن أن يغضب لنبي الاسلام المظلوم عليه السلام الذي فضحه البخاري بتلك الأكاذيب امام العالم كله ومنذ اكثر من اثني عشر قرناً من الزمان.

أما عدو الله تعالى ورسوله الموالي للبخاري المقدس له فلن يجرؤ على انتقاد البخاري لأنه في عقيدته إله لايخطىء وفوق مستوى الأنبياء الذين كانوا يخطئون وينزل الوحي يلومهم ويؤنبهم. ولأنه لا يجرؤ على انتقاد البخاري ولا يستطيع في نفس الوقت

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

اعلان نصرة النبي المظلوم في هذه القضية فالحل الوحيد للخروج من هذا المأزق هو الهجوم على مؤلف هذا الكتاب وصب اللعنات عليه وكيل الاتهامات في حقه ليشغل الناس بقضية أخرى ينجو بها هو و البخاري إلهه. ولكن هل سينجو من عقاب الآخرة؟

وإذا أردنا أن نعرف مدى الجرم الذي نرتكبه في حق نبينا عليه السلام بالسكوت عن البخاري وأمثاله علينا أن نقرأ في القرآن الكريم كيف كان حرص الله تعالى عظيماً على حماية سمعة هذا البيت النبوي الكريم.

كان بعض الناس يستسهل الدخول على بيت النبي بدون إذن وكان النبي يتحرج ويستحي من طرد أولئك المتطفلين فنزل قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[1]. أن البيت المادي للنبي قد اندثر ولكن التشريع الخاص بالبيت المعنوى للنبي لا يزال قائماً. فبيت الرجل العادي هو نساؤه واهله. أما بالنسبة للنبي محمد بالذات فالمصطلح القرآني «أهل البيت» مقصود به نساء النبي تحديداً، واقرأ في ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

وهكذا فإن التشريع لا يزال قائماً في حرمة البيت النبوي بعد موت النبي ونسائه، خصوصاً وهن امهاتنا في الاسلام، وهن اللاتي يريد الله تعالى أن يذهب عنهن الرجس ويطهرهن تطهيراً. فكيف بالبخاري ومن يعبدونه ويقدسونه وهم طيلة القرون الماضية يحاولون انتهاك حرمة هذا البيت العظيم الطاهر برجسهم وقذارتهم؟!!

معنى الصلاة على النبي ومعنى ايذاء النبي

بعد قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[2] جاءت الآية التالية في التحذير من الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ بعدها جاءت الاية التالية في استثناء من يدخل على نساء النبي من أقاربهن.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٥.

والمفهوم من السياق ان الذي لا يطيع هذه الأوامر والنواهي يكون ـ ليس فقط عاصياً لله تعالى ورسوله ـ ولكن أكثر من ذلك يكون ممن يؤذون الله تعالى ورسوله، وجاء التلميح بذلك في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾. أما الذي يحفظ حق النبي وحق امهات المؤمنين فهو الذي يحتفظ بالصلة الطيبة بالنبي مهما تباعد الزمن بينه وبين النبي.

المهم أن اتهام من لا يطيع الأوامر والنواهي السابقة جاء تلميحاً في الآية السابقة ثم جاء تصريحاً وتفصيلاً في الآيات التالية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾[1].

أولئك الذين في قلوبهم مرض لم يقتحموا بيت النبي بدون إذن فقط بل اقتحموا عليه بأقلامهم ورواياتهم المسمومة حجرة نومه يؤذونه في خصوصياته وأدق أسراره مع زوجاته يسجلونها كما يحلو لهم ليطعنوا في شخصه الكريم. هذا مع أن المؤمن يحافظ على صلته بالنبي بتمسكه بما كان النبي يتمسك به وهو القرآن وبأن يدفع عنه تلك التهم التي تسللت إلى الدين. وبعضنا ـ دون أن يدري ـ يقول دائماً اللهم صلِّ على النبي وهو يتمسك في نفس الوقت بالأحاديث التي تطعن في سيرة النبي...... هدانا الله إلى الحق..

---

(١) سورة الأحزاب، الآيات: ٥٦ ـ ٥٨.

الساحر المزعوم الذي سحر النبي:

تحت (باب السحر) يروي البخاري هذا الحديث منسوباً لعائشة «**سحر رسول الله رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي لكنه دعا ودعا ثم قال: يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل فقال: مطبوب قال: من طبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم قال: في أي شيء؟ قال في مشط ومشاطة وجُف طلع نخلة ذكر، فقال وأين هو قال في بئر ذروان. فأتاها رسول الله في ناس من أصحابه فجاء فقال: يا عائشة كأن ماءها ناقعة الحناء أو كأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين، قلت يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: قد عافاني الله فكرهت أن أثور على الناس فيه شراً فأمر بها فدفنت**».

وفي رواية أخرى يضع فيها البخاري بعض (البهارات) الجنسية فيقول «**كان رسول الله سُحر حتى كان يري أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا فقال يا عائشة أعلمت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه. أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي..**» وتمضي رواية الحديث إلي أن تقول عائشة «**أفلا تنشرت فقال أما والله فقد شفاني وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً...**» والإشارات الجنسية في هذه الرواية هي قوله «**حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن**» و«**هذا أشد من يكون**

من السحر» ثم قول عائشة «**أفلا تنشرت**»[1] .

واتهام الرسول بالسحر أو بأن بعضهم سحره فيه تشكيك في الرسالة وطعن في الدين. وقبل هذه الروايات التي جاء بها المصدر الثاني فإن مشركي مكة اتهموا النبي محمداً بأنه مسحور ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾[2].

ويعلق رب العزة على ذلك الاتهام بقوله ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٤٨﴾[3].

وكرر القرآن نفس الحكاية في سورة الإسراء فيقول عن المشركين ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٤٧﴾[4] ويعلق رب العزة على ذلك الاتهام فيقول نفس المقالة ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٤٨﴾[5].

ولأمر ما تكرر قوله تعالى ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٤٨﴾ في التعليق على اتهام المشركين للنبي بأنه كان مسحوراً. وأعتقد أن هذا التكرار كان مقصوداً للرد

(١) البخاري: الجزء السابع ص ١٧٦: ١٧٨، الجزء الثامن ص ١٠٣.

(٢) سورة الفرقان، الآيتان: ٧، ٨.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٩.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٤٧.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٤٨.

على اتهام آخر للرسول بالسحر بعد وفاته، وجاء هذا الاتهام في روايات المصدر الثاني.

إن الله حفظ رسوله ليبلغ الرسالة كما هي. يقول تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾(١).

فكيف يكون الله تعالى حافظاً له من الناس ويستطيع ذلك اليهودي المزعوم أن يسحره.

اليهودي المزعوم الذي رهن النبي عنده درعه:

حديث البخاري يقول «**توفي رسول الله ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير..**»(٢). هل يمكن أن نصدق أن رسول الله يضطر لأن يرهن دروعه عند يهودي في مقابل أن يحصل على ثلاثين صاعاً من شعير..؟ ثم هل يمكن أن نصدق أن يموت النبي وهو مدين لذلك اليهودي ودرعه مرهونة عنده؟ وأين كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ومنهم الأغنياء والمياسير؟..

ومن السهل الرد على هذه الرواية من خلال البخاري نفسه الذي ذكر الإيراد السنوي الثابت الذي كان يحصل عليه النبي من ضيعة فدك(٣).

كما يذكر البخاري أن أموال بني النضير اليهود بعد أن

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٢) البخاري الجزء الرابع ص ٤٩: ٥٠، الجزء السادس ص ١٩، الجزء الثالث ص ١٠٧، ١٧٧.

(٣) البخاري: الجزء الرابع ص ٩٦.

طردهم النبي من المدينة كانت فيئاً خاصاً بالنبي «**ينفق منها على أهله نفقة سنته، ثم يجعل ما بقي منها في السلاح والكراع عدة في سبيل الله**»[1].

إذن على هذا كيف يتوفي النبي وهو مدين ليهودي بثلاثين صاعاً من شعير وقد رهن درعه عنده؟.

والقرآن الكريم يثبت أن بيت النبي كان مفتوحاً للضيوف يأكلون ويتحدثون ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟..﴾[2].

وتاريخ المسلمين ينفي أيضاً رواية البخاري عن رهن درع النبي عند ذلك اليهودي.. فالنبي عليه السلام قد أجلا كل اليهود عن المدينة، أجلا يهود بني قينقاع ثم يهود بني النضير ثم يهود بني قريظة، وقد تحدث القرآن عن جلاء آخر قبائل اليهود في سورة الأحزاب[3] وظلت المدينة خالية منهم إلى أن توفي النبي.. إذن فأين ذلك اليهودي المزعوم الذي ظل وافر الثراء إلى أن مات النبي وقد رهن درعه عنده؟.

البخاري ينسب للنبي تشريع الرجم للزاني:

تحت عنوان «باب رجم المحصن» أتى البخاري بأحاديث الرجم للزاني المحصن، وهي لا تخلو من بعض التناقض والتشكيك.

---

(١) البخاري: الجزء السادس ص ١٨٤.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.
(٣) انظر سورة الأحزاب، الآية: ٢٦.

فيروي حديث جابر «**أن رجلاً ممن أسلم أتى رسول الله ﷺ فحدثه أنه قد زنى فشهد على نفسه أربع شهادات فأمر به رسول الله ﷺ فرُجم وكان قد أحصن**» وحديث أبي هريرة عن رجل آخر أقر للنبي بالزنا وهو في المسجد «**فقال له النبي: أبك جنون؟ قال: لا، قال: فهل أحصنت؟ قال: نعم، فقال النبي: اذهبوا به فارجموه.. ويقول الراوي فكنت فيمن رجمه فرجمناه بالمصلى..**».

ثم يأتي البخاري بحديث أنس عن رجل آخر مجهول قال للنبي «**يا رسول الله إني أصبت حداً فأقمه عليّ، قال ولم يسأله عنه قال وحضرت الصلاة فصلى مع النبي فلما قضى النبي الصلاة قام إليه الرجل فقال: يا رسول الله إني أصبت حداً فأقم فيّ كتاب الله. قال: أليس قد صليت معنا؟ قال: نعم، قال: فإن الله قد غفر لك ذنبك أو حدّك**».

وواضح ذلك التناقض بين أحاديث فيها تشريع الرجم يأمر به النبي وحديث آخر يتغاضى فيه النبي عن توقيع تلك العقوبة لأن الزاني قد صلى مع النبي وقد غفر الله له.

ثم هناك تشكيك آخر في عقوبة الرجم في حديث يرويه البخاري يقول «**حدثنا خالد عن الشيباني سألت عبد الله بن أبي أوفي: هل رجم رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قلت: قبل سورة النور أم بعد؟ قال: لا أدري**» وقد نزلت عقوبة الزنا في سورة النور وهي الجلد لا الرجم كما سيأتي تفصيله فيما بعد، ولكن رواية الحديث تشير بطرف من الشك إلى أن عقوبة الرجم محدثة قبل - وربما بعد - نزول سورة النور التي شرعت العقوبة الحقيقية لجريمة الزنا

وهي الجلد. ثم يأتي البخاري بحديث طويل ينسبه لعمر بن الخطاب فيه التأكيد على أن الرجم هو عقوبة الزاني المحصن، ويقول فيه «**لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله..**» وذلك الحديث الطويل المنسوب لعمر بن الخطاب يتضح فيه أنه صبغ بلهجة محمومة للدفاع عن عقوبة الرجم للزاني ضد أولئك الذين كانوا ينكرونه، مما يعني أن اختراع عقوبة الرجم وتشريعها ونسبتها للنبي لم تكن بالشيء الهين في عصر البخاري وإنما استلزمت الكثير من الدفاع والهجوم الوقائي وعكست ذلك كله الروايات المختلفة[1].

وقد مات ابن برزويه والمشهور اسمه بالبخاري سنة ٢٥٦ هـ. وعاصره الأديب المشهور الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥ هـ. وقد ألف الجاحظ كتابه «البخلاء» الذي ذكر فيه نوادر البخلاء وطرفاً من الحياة الاجتماعية في العصر العباسي، وتحدث فيه على سجيته وكان مما ذكره عن بعض أصحابه من البخلاء «ولقد خبّرني خباز لبعض أصحابنا أنه جلده على إنضاج الخبز وأنه قال له: أنضج خبزي الذي يوضع بين يدي واجعل خبز من يأكل معي على مقدار بين المقدارين، وأما خبز العيال والضيف فلا تقربنه من النار إلا بقدر ما يصير العجين رغيفاً وبقدر ما يتماسك. فكلفه العويص فلما أعجزه ذلك جلده حد الزانى الحر»[2]. أي إن عقوبة الزاني

(١) راجع البخاري الجزء الثامن ص ٢٠٤: ٢١١.

(٢) الجاحظ: البخلاء: ٥٥: ٥٦، تحقيق طه، الآية: الحاجري، دار المعارف بمصر.

كانت الجلد ولم تكن الرجم، وأن العبد الزاني كان يُجلد خمسين جلدة وأن الحر الزاني كانت عقوبته مائة جلدة. وهذا ما كان معروفاً ومألوفاً في عصر التدوين حيث عاش الجاحظ والبخاري. ونفهم من هذا أن الروايات المتناقضة في موضوع الرجم كانت تعكس اختلافاً فقيهاً في الآراء، وكان كل فريق يعزز موقفه بأحاديث ينسبها للرسول عليه السلام.. وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم وجدنا أن الجلد هي عقوبة الزاني والزانية.

وسورة النور التي نزل فيها تشريع الجلد للزناة بدأت بآية تستلفت النظر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، يقول تعالى في بداية سورة النور ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١)﴾ ففي بداية السورة تنبيه وتذكير لنا بأحكام تالية غاية في الأهمية ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١)﴾ ثم بعد هذا التنبيه عالي النبرة يقول تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ والله تعالى وهو الأعلم وحده بالغيب أنزل هذا التحذير والتنبيه لأنه تعالى يعلم أنه سيأتي زمان بعد نزول القرآن يصاغ فيه تشريع بعقوبة الزنا لم يرد في كتاب الله ويخالف تلك الفرائض والآيات البينات الواضحات، لأن الذين يدافعون عن ذلك التشريع الزائف لم يتذكروا كلام الله ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ..﴾.

وتفصيلات القرآن ـ التي قلما يهتم أحد بالتدبر فيها ـ جاءت بالأحكام التفصيلية لعقوبة الزنا.

* فالزاني والزانية إذا تم ضبطهما في حالة تلبس وبشهادة أربع شهود أو بالإقرار يصح معه وصفهما بالزاني والزانية فعقوبتهما هي الجلد مائة جلدة عقوبة علنية أمام طائفة من المؤمنين ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

* ومن الصعب إثبات حالة التلبس في جريمة الزنا، ومن السهل أن يشاع عن امرأة ما أنها سيئة السمعة والسلوك، وتتكاثر الشواهد على ذلك دون إثبات حالة التلبس، وحينئذ لابد من عقاب مناسب بعد الإشهاد عليها بأربعة شهود بأنها سيئة السمعة والسلوك يقول تعالى ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾(١) فالعقاب هنا ليس الجلد وإنما هو إجراء وقائي يمنع تلك المرأة عن الناس ومنع الناس عنها إلى أن تتوب أو تموت.

* وقد تكون الزانية جارية يجبرها مالكها على البغاء، وحينئذ لا عقوبة عليها ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

* وإذا تزوجت الجارية أي تحصنت بالزواج من الوقوع في

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٣.

مثل هذه المواقف، لكنها وقعت في الزنا باختيارها فعقوبتها خمسون جلدة أي نصف ما على المحصنات العفيفات من الحرائر ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾[1] ولو كان هناك رجم على الزانية الحرة المحصنة فكيف نطبق هنا نصف الرجم؟.

* وقد تكون الزانية زوجة مطلقة لا تزال في فترة العدة وفي عصمة زوجها ومن حقها البقاء في بيته ولكن تفقد هذا الحق بوقوعها في الزنا ويكون للزوج أن يطردها من بيته ولكن يشترط أن يكون إثبات الجريمة حقيقياً بالشهود أو بتعبير القرآن ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ وذلك حتى لا يكون هناكِ مجال للزوج المطلق أن يفتري على زوجته مطلقته كذباً؟

يقول تعالى عن تلك الزوجة المطلقة ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾[2].. والطرد هنا عقوبة تضاف للجلد..

* وتأبى تفصيلات القرآن إلا أن تضع عقوبة الزنا لحالة مستبعدة واستثنائية للغاية، وهي فيما يخص نساء النبي أمهات المؤمنين إذا وقعت إحداهن في هذه الجريمة فيكون العقاب بالنسبة لها مائتي جلدة، أي ضعف ما على المرأة الحرة، وإذا أحسنت كان ثوابها ضعف ثواب المحسنات، يقول تعالى ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٥.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ١.

وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾[1] فهل إذا كان العذاب هو الرجم فكيف يمكن جعل الرجم مضاعفاً..؟

ومن الإعجاز في آيات الله المحكمة أن يوصف عقاب الزناة بالجلد بأنه عذاب..

فعن حالة الزنا وضبط الزناة في حالة تلبس أو إقرار يقول تعالى ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ..﴾ ثم تصف الآية عقوبة الجلد بأنها عذاب فيقول ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وفي حالة الجارية التي تضبط زانية بعد زواجها يقول تعالى ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فالعذاب هو الجلد للجارية المتزوجة والحرة أيضاً، وفي حالة نساء النبي يقول تعالى ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ فوصف الجلد هنا أيضاً بأنه عذاب..

وفي بداية سورة النور بعد أن تحدث ربنا جل وعلا عن عقوبة الزانية والزاني وأنها الجلد مائة جلدة ووصفه بأنه عذاب.. تحدث فيما بعد عن حالة الزوج الذي يضبط زوجته وهي تزني ولم يكن معه شهود يؤكدون ادعاءه، وأنزل الله تعالى تشريع الملاعنة، وذلك بأن يشهد الزوج بنفسه أربع شهادات بالله بأن زوجته زانية، وأنه صادق في هذا الاتهام، ثم يشهد الشهادة

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٣٠، ٣١.

الخامسة ويجعل لعنة الله عليه إن كان كاذباً ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝﴾ ويمكن للزوجة المتهمة أن تدفع عن نفسها عقوبة الجلد بأن تشهد أربع شهادات بالله بأن زوجها كاذب ثم تشهد الشهادة الخامسة بأن غضب الله عليها إن كان زوجها صادقاً في اتهامه لها ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1].

والشاهد في الآيات أن الله تعالى وصف عقوبة الزنا للمتزوجة بأنه عذاب وأنه يمكن للزوجة التي يتهمها زوجها على الملأ بالزنا بأن تدرأ عنها عذاب الجلد بشهادات أخرى تنفي التهمة فقال تعالى ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ..﴾.

إذن وصف الله عقوبة الجلد بأنها عذاب وجعل هذا الوصف يأتي في حالات مختلفة تضم المحصن والمحصنة بالنص.. ومعناه أن الجلد هو العقوبة لكل الزناة محصنين أو غير محصنين. ووجه الإعجاز هنا أن الله تعالى أورد هذا الوصف لأنه تعالى يعلم أن هناك من سيأتي بتشريع ما أنزل الله به من سلطان يقتل به النفس التي حرم الله بغير الحق، بل ويقتلها أبشع قتلة وهو القتل رجماً... وما أبشع الافتراء على الله ورسوله..

(١) سورة النور، الآيات: ٦ ـ ٩.

ألا ينبغي أن نتذكر قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1] ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ..﴾[2] ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ..﴾[3].

ولكننا لا نكتفي بقتل النفس الزكية بغير نفس، ولكن نصدر بذلك تشريعاً يجعل ذلك الجرم ساري المفعول، ثم لا نكتفي بذلك بل ننسبه لله ورسوله.. ولك أن تتخيل عزيزي القارئ كم من الأنفس الزكية لفظت أنفاسها تحت أكوام من الحجارة تنهمر عليها من كل جانب وتلقى مصرعها بالموت البطيء، وأولئك الذين يقومون بتنفيذ الإعدام من المسلمين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً وأنهم ينفذون أوامر الله ويرجمون الزاني المحصن..!!

وكم يضحك منا إبليس اللعين..

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[4].

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٣.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٦٨.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٨.

البخاري ينسب للنبي الأكاذيب والمتناقضات:

رأينا طرفاً من التشريعات الكاذبة التي نسبها البخاري للنبي عليه السلام. وهو تشريع الرجم، وقد توقفنا معه لأنه أخطرها ولأنه لا يزال محل تطبيق و يجد بين المسلمين أنصاراً حتى الآن..

ونتوقف الآن قليلاً مع أكاذيب ومتناقضات نسبها البخاري للنبي عليه السلام..

وعموماً فكل الأحاديث التي رواها البخاري وغيره وفيها ينسبون للنبي أقاويل عن علامات الساعة وأحداثها والشفاعة وأحوال القيامة ـ كلها أحاديث تناقض القرآن صراحة، فالقرآن يؤكد في أكثر من موضع بأن النبي لا يعلم الغيب ولا يعلم شيئاً عن الساعة وموعدها وتفصيلاتها وقد عرضنا لذلك فيما سبق، وأتينا بالآيات الكثيرة في هذا الموضع، ويكفينا منها قوله تعالى للنبي ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ..﴾[1] وإذا كان النبي لا يعلم ماذا سيحدث له أو لغيره فكيف ننتظر منه أن يتحدث عن أحوال القيامة وشفاعته أو عدم شفاعته..؟

ثم ألا يكفينا قوله تعالى في عدم علم النبي بالغيب ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ..﴾[2] ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.

لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

على أن البخاري قد نسب أحاديث عن موعد قيام الساعة، وهي مع مخالفتها لصريح القرآن الذي ينفي عن النبي علم الغيب فإن هذه الأحاديث المنسوبة للنبي أراد بها البخاري أن يجعل القارئ يتهم النبي بالكذب.. كيف ذلك؟.

اقرأ في أحاديث البخاري هذه الأقاويل عن موعد قيام الساعة «**صلى بنا النبي العشاء في آخر حياته فلما سلّم قام فقال: أرأيتكم ليلتكم هذه فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد**» وفي رواية أخرى «**لا يبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منفوسة**» فالبخاري يسند للنبي قوله بأن القيامة ستقوم بعد مائة عام، وحين كتب البخاري تلك الأحاديث كان قد مضى على موت النبي أكثر من مائتى عام، أي إن البخاري كتب هذه الأحاديث ليدفع القارئ إلى تكذيب النبي.

ويكرر البخاري نفس المعنى في صورة أخرى، يقول «**كان رجال من الأعراب جفاة يسألون النبي عن الساعة فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول: إن يعش هذا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم**».

وفي حديث آخر أكثر صراحة يروي البخاري «**أن رجلاً سأل الرسول متى تقوم الساعة... فمر غلام للمغيرة فقال النبي: إن أُخِّر هذا ـ أي إن عاش ـ فلن يدركه الهرم حتى تقوم**

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

الساعة...» وعلى ذلك فلابد أن الساعة قد حدثت في حياة ذلك الغلام دون أن ندري.. أو ربما يكون ذلك الغلام حياً حتى الآن..[1]!.

والقارئ إذا تحمس للبخاري وجعله صادقاً في نقله لتلك الأحاديث وأن النبي قد قال ذلك فعلاً فمعناه أنه يتهم النبي بالكذب.. والأسلم لنا أن نرجع للقرآن وإلى قوله تعالى ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ..﴾[2]. فالنبي لم يتحدث مطلقاً عن الغيب لأنه لا يعلم الغيب إلا الله ..﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾[3].

وقد يضع البخاري حديثاً يعرف أن التجربة العملية قد أثبتت كذبه مثل حديث «**من تصبح كل يوم سبع تمرات لم يضره سم ولا سحر**»[4].

وقد يضع حديث يعرف أن حقائق التاريخ الثابتة في القرآن تناقضه مثل الحديث المشهور «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر...**» إذن كيف نفسر هزيمة النبي في غزوة أحد وحصار المشركين له في المدينة حيث يصف رب العزة حال المسلمين في المدينة ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِن

---

(١) راجع البخاري الجزء الأول ص ٣٩: الجزء الثامن ص ١٣٣: الجزء الثامن ص ٤٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

(٣) سورة النمل، الآية: ٦٥.

(٤) البخاري: الجزء السابع ص ١٠٤.

أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾[١] فإذا كان النبي قد نصره الله بالرعب مسيرة شهر فكيف حاصره المشركون في المدينة في موقعة الأحزاب؟.

وقد يأتي البخاري بأحاديث متناقضة فيما بينها في الموضوع الواحد، وهو ينسبها للنبي ليدفع القارئ للتشكيك فيه، ويحرص البخاري على أن يجعل تلك الأحاديث المتناقضة في أمور التشريع.. والأمثلة كثيرة نكتفي بذكر بعضها على عجل..

فالبخاري ينسب للنبي أنه نهى أصحابه عن الاختصاء **«حديث ابن مسعود: كنا نغزو مع النبي ليس لنا نساء فقلنا يا رسول الله أن نستخصي؟ فنهانا عن ذلك»**. وفي الصفحة التالية مباشرة حديث أبي هريرة وفيه سماح النبي له بالاختصاء **«قلت يا رسول الله إني رجل شاب وأنا أخاف على نفسي العنت ولا أجد ما أتزوج به النساء... فقال النبي: يا أبا هريرة جفَّ القلم بما أنت لاق فاختص على ذلك أو ذر..»**[٢].

وفي صفحة واحدة حديثان متناقضان **«إذا شرب كلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً»** وبعده مباشرة حديث **«كانت الكلاب تبول وتقبل وتدبر في المسجد في زمان رسول الله فلم يكونوا يرشون شيئاً من ذلك»**[٣].

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ١٠، ١١.

(٢) البخاري: الجزء السابع ص ٤، ص ٥.

(٣) البخاري: الجزء الأول ص ٥٣.

وفي صفحة واحدة يقول البخاري «**كان النبي يتوضأ عند كل صلاة**» وبعدها مباشرة حديث يناقضه «**إن النبي صلى المغرب ولم يتوضأ**»[1].

وتأتي أحاديث كثيرة تحض على سرعة التبكير بالذهاب لصلاة الجمعة، وتملأ هذه الأحاديث صفحات من البخاري ثم يتبعها حديث ينقضها جميعاً يقول «**إذا أُقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون عليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا**»[2].. وروايات متناقضة في صلاة الكسوف تملأ صفحات وقد يخرج منها القارئ بتصميم على ألا يصلي الكسوف أبداً[3] وأحاديث تحذر من المرور بين يدى المصلي وتأمر المصلي أن يخرج من صلاته ليقاتل ذلك المسلم الذي مر أمامه لأنه شيطان «**إذا صلى أحدكم إلى شيء يستره فأراد أحد أن يجتاز بين يديه فليدفعه فإن أبى فليقاتله إنما هو شيطان**» «**لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خير له من أن يمر بين يديه**».

وفي نفس الصفحة أحاديث تبيح ذلك منسوبة لعائشة «**لقد رأيت النبي يصلي وإنى لبينه وبين القبلة وأنا مضطجعة على السرير**» «**كنت أنام بين يدي رسول الله ورجلاي في قبلته فإذا سجد غمزني فقبضت رجلي فإذا قام بسطتهما**» ثم حديث ابن عباس «**أقبلت راكباً على حمار أتان وأنا يومئذ قد ناهزت**

(١) البخاري: الجزء الأول ص ٦٢.

(٢) البخاري: الجزء الثاني ص ٣، ٤، ٨، ٩.

(٣) البخاري: الجزء الثاني ص ٤٢: ٥٠.

الاحتلام ورسول الله يصلي بمنى إلى غير جدار فمررت بين يدي بعض الصف وأرسلت الأتان ترتع فدخلت في الصف فلم ينكر ذلك عليّ أحد» وأحاديث أخرى تجعل الحمير والخراف والنساء تمر أمام النبي وهو يصلي، فأيهما نصدق[1].

وقد يأتي البخاري بأبواب كاملة يناقض بعضها بعضاً ويتلو بعضها بعضاً..

فهناك باب عنوانه «**باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**» وتحته أحاديث كثيرة تؤكد هذا المعنى، ثم يتلوه باب آخر عنوانه «**باب ما ذكر في شؤم الفرس**» وتحته أحاديث مثل «**إنما الشؤم في ثلاثة في الفرس والمرأة والدار**»[2]. بل قد يأتى البخاري بالتناقض في حديث واحد، مثل «**لا عدوى ولا طيرة والشؤم في ثلاث في المرأة والدار والدابة**»[3]. فكيف ينهى عن الطيرة أي التطير والتشاؤم ثم يأمر بالتشاؤم المستمر من رؤية المرأة والدار والدابة. وإذا طبقنا هذه السُنّة فلن ندخل بيتاً ولن ننظر إلى زوجة أو ذات محرم ولن نرى حيواناً يدب على الأرض.

على أن أفظع الأحاديث المتناقضة جاء بها البخاري في موضوع الصلاة ليشكك المسلمين فيها..

فهناك أحاديث تأمر المرأة بأن تصلي وهي حائض وأحاديث أخرى تنهى عن ذلك[4].

---

(١) البخاري: الجزء الأول ص ١٢٨: ١٢٩، الجزء الأول ص ٢٩، ص ١٢٦.

(٢) البخاري: الجزء الرابع ص ٣٠: ٣٣.

(٣) البخاري: الجزء السابع ص ١٧٤.

(٤) البخاري: الجزء الأول ص ٨١، ٨٤، ٨٥، ٨٦.

وأحاديث تأمر بالصلاة بعد الصبح وبعد العصر وأحاديث تنهى عن ذلك[1].

وأحاديث تثبت أن النبي كان يصلي الظهر ركعتين والعصر ركعتين في غير السفر وفي غير الخوف منها: **«خرج علينا رسول الله بالهاجرة فأتى بوضوء فجعل الناس يأخذون منه فضل وضوئه فيتمسحون به فصلى النبي الظهر ركعتين والعصر ركعتين وبين يديه عنزة» «أن النبي صلى بهم البطحاء وبين يديه عنزة الظهر ركعتين والعصر ركعتين يمر بين يديه المرأة والحمار»**[2].

وأحاديث أخرى تقول إن النبي كان يصلي الصبح أربع ركعات **«أن رسول الله رأى رجلاً وقد أقيمت الصلاة يصلي ركعتين فلما انصرف رسول الله لاث به الناس وقال له رسول الله: الصبح أربعاً الصبح أربعاً»**[3].

ومع هذا يجعلون البخاري وكتب الاحاديث مصدراً للمعرفة بالصلاة وكيفيتها، ولم يتساءل احدهم كيف كان المسلمون يصلون قبل مولد البخاري؟

ونكتفي بهذا فقد تعبنا.. وأتعبنا..

---

(١) البخاري: الجزء الأول ص ١٤٣: ١٤٥.

(٢) البخاري: الجزء الأول ص ٥٧، ص ١٢٦.

(٣) البخاري: الجزء الأول ص ١٥٩: ١٦٠.

الخاتمة

١ - الله تعالى ينزل مصدراً واحداً لدينه ولكن لا يلبث الناس أن يقيموا إلى جانبه مصادر أخرى مع التزييف في كلام الله، ولكن الله تعالى أتم حجته علينا بإنزال القرآن محفوظاً بعناية الله من الزيف والتحريف وجعله مهيمناً على ما سبقه من كتب وأنزله مبيناً مفصلاً تاماً لا يحتاج إلى مصدر آخر معه، وتظل آيات الكتاب حجة على أولئك الذين يتهمون القرآن بالنقص والغموض والاحتياج للبشر.

٢ - وأصحاب المصدر الثاني ينسبون الأحاديث للنبي مع اعترافهم بأن النبي نهى عن كتابة هذه الأحاديث، ومع اعترافهم أيضاً بأن العصر الذهبي للإسلام لم يشهد كتابة تلك الأحاديث التي لم تُدوّن إلا في عصور الاضطراب العقيدي والتفرق الديني والتحزب السياسي. وهم حين ينسبون تلك الأحاديث للنبي يجعلونها درجات في الصحة والصدق، فمنها المتواتر الذي يفيد عندهم اليقين وعدد أحاديثه يتراوح ما بين صفر إلى أقل من عشرة أحاديث عند أكثر المتفائلين، ومنها الآحاد وهو القسم الأعظم من تلك الأحاديث، ثم يقسمون أحاديث الآحاد إلى درجات مختلفة بين الصحة والزيف، وبين الصدق والكذب، وهو تقسيم مضحك،

ذلك لأنك حين تنسب قولاً ما لقائله فالأمر لا يحتمل إلا واحداً من اثنين، إما أن يكون الشخص قد قال ذلك القول فعلاً فالقول صادق في نسبته إلى قائله بدرجة ١٠٠٪، وإما أن يكون الشخص لم يقل ذلك القول، وحينئذ تكون نسبته إليه كاذبة ١٠٠٪، ولا توسط بين الاثنين، ومثلاً فإن حديث «اعملي يا فاطمة فإني لا أغني عنك من الله شيئاً»؟ إما أن يكون النبي قد قاله فعلاً ونطق به وحينئذ فهو من قول النبي ١٠٠٪، وإما لم يتلفظ به النبي وحينئذ تكون نسبته للنبي كاذبة ١٠٠٪ ولا مجال للوسطية. ولكن أين لنا أن نتحقق من ذلك وقد دار ذلك الحديث على الألسنة أكثر من قرنين من الزمان إلى أن تمت كتابته، والذي كتبه لم يشهد النبي ولم يشهد الأجيال التي أتت بعد النبي أيضاً.

ونعود إلى تقسيماتهم المضحكة لدرجات الأحاديث من الصدق والكذب فنراهم يقولون إن ذلك الحديث صادق بنسبة ٧٠٪ والآخر بنسبة ٥٠٪ والآخر بنسبة ١٣٪ أي ضعيف.. وهو تقسيم يضحك منه الحزين. فإما أن يكون الرسول قد قال ذلك الحديث فهو صادق ١٠٠٪ وإما لم يقله الرسول فالحديث كاذب ١٠٠٪.

والذي قاله الرسول ويظل إعجازاً لنا على أنه كلام الله هو القرآن، وهو الحديث الذي ينبغي الإيمان به وحده والاحتكام إليه وحده، فالذي أنزل هذا الكتاب هو الذي سيحاسبنا على أساسه يوم القيامة، أما الذين كتبوا لنا مؤلفات المصدر الثاني فهم بشر مثلنا سيقفون معنا صفاً أمام الله في الموقف العظيم يوم القيامة.

وخوفاً من ذلك اليوم فإننا ندعو القارئ المسلم لأن يخلو

بنفسه ليتفكر فيما أوردنا في هذا الكتاب داعياً الله تعالى بإخلاص أن يهديه إلى الصراط المستقيم تاركاً خلفه كل هوى قديم.. إن أعمارنا محدودة، والأيام تسير بنا والموت يتربص بنا ولا ندري متى سينشب فينا أظفاره، ولا بد أن يحسم كل منا رأيه في هذه القضية حتى يكون مستعداً للقاء الله يوم القيامة، يكفي أن ينظر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله في الأرض من إبداع، أيمكن للخالق جل وعلا أن ينزل علينا كتاباً ناقصاً غامضاً موجزاً محتاجاً لكلام البشر ليكمله ويوضحه ويفصّله؟.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

وصدق الله العظيم

﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾

والسؤال لا يزال مطروحاً...

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

ليس المقصد من هذا الكتاب اتهام القارىء بل الحوار معه إيماناً من المؤلف بأن الفطرة الإسلامية لدى كل مسلم عاقل تنبض في قلبه بالحق . . وإذا حدث وتراكمت على هذه الفطرة موروثات تخالف الحق فإن آيات القرآن العزيز كفيلة بتنقية هذه الفطرة لتعود إلى صفائها الأول الذي كانت عليه في عصر النبوة الذهبي الإسلامي .

ولذلك فالمؤلف يدعو القارىء ليتصفح معه كتاب الله ويتدبر آياته الكريمة طلباً للهداية له ولجميع المسلمين .